صراعات الأيام الأولى فى الإسلام

متى؟ وكيف؟ لماذا؟

د. رفعت السعيد

السعيد. رفعت
صراعات الأيام الأولى فى الاسلام/ رفعت السعيد
تأليف: رفعت السعيد
القاهرة: رفعت السعيد، ٢٠١٥
١٣٦ صفحة ١٤ × ٢٠
تدمك: 978-977-5047-27-4
١- الاسلام - مبادئ عامة
أ- صراعات الأيام الأولى فى الإسلام
متى؟ وكيف؟ لماذا؟ ٢١١
رقم الإيداع: ٢٢٤٠٨/ ٢٠١٥
I.S.B.N 978-977-5047-27-4

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للناشر.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الأقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الناشر.

صراعات الأيام الأولى فى الإسلام

متى؟ وكيف؟ لماذا؟

الإهـــداء

إلى حفـيـدى الـعـزيـز رامى خـالـد الـسـعـيـد
الـذى مـا أن إقـتـرب من سن الـشـبـاب حـتى
أمـطـرنى بمـئـات من مـتى؟ وكـيف؟ ولمـاذا؟
ومـا مـعـنى مـا كـان من صـراعـات؟
ولعلى بهذه الكتابة أكون قد أجبته ولو بأقل قدر
بمـا يـوضح له هـو وجـيـله، بـعـضـا ممـا كـان.

مجرد تبرير

لست أدعى أننى مقتدر فى الفقه، فأنا لست فقيها ولو بأقل قدر، ولست كذلك متفيقها، وأول من قالها كان عمر بن الخطاب عندما سئل ما هو "الآب" (فى الآية وفاكهة وآبا) فأجاب فى بساطه المؤمن الحقيقى الإيمان والعالم بما هو صحيح فى الإسلام، وما هو تأسلم "لا أعرف"، وأضاف" لقد نهينا عن التفيقه أى الافتاء وبلا معرفة حقيقية فتأتى الفتوى وفق الهوى والمصلحة الذاتية بينما حذرنا الإمام الشافعى.

فغالب هواك فإن الهوى
يقود الأمور إلى ما يعابَ

فأنا فقط وجدت شابا مسلما صحيح الإسلام لكنه هو وجيله فى حيرة عما كان وعما هو كائن واحسست أن حفيدى وجيله بحاجة

إلى قدر من الاستقرار الفكرى، يحميه باليقين من الوقوع فى براثن الاضطراب الفكرى، فقد يتخبط وقد يحبط وقد يتخيل أن ثمة معرفة يقينية لدى الآخر المتأسلم، المتطرف وقد تخلق فى عقله غشاوة من اللامعرفة فيلتقط مما هو متكاثر الآن فى سوق الإعلام الردئ وما هو متناثر تأتى به الاخبار عن قتله يمارسون الوحشية ويزعمون أنها إسلام، وقد يقذفون بأنفسهم فى نيران انتحارية راضين ومتخيلين أنهم ذاهبون حتما إلى الجنة.. وننسى أو يتذكر القليلون منا فقط الآية الكريمة "قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا" .

وهكذا يذهبون إلى جحيم الفعل الانتحارى متوهمين أنه الإيمان بينما هم فى الواقع "الاخسرين اعمالا".

وفى محاولة لمحو هذه الغشاوة أو حتى بعضا منها كانت هذه الكتابة التى حرصت على أن تأتى مباشرة وبلا متاهات فقهية معقدة، وخالية مما اعتادت عليه كتابات الفقهاء القدامى والمحدثين والحاليين من حكايات يلفها الغموض، وانحناءات تغرق نفسها بالتعقيد وما اسماه القدامى بالاستقصاء الممل والمخل فى محاولة الاجابة عليه ، كأن تعرض المسألة البسيطة ثم يجرى تعقيدها وإبعادها عن مقتضى العقل سعيا وراء إدعاء المعرفة فينفر منها الشباب الذى يحلق فى مجال العقل والمعقول فيتباعد عن القول بأكمله، والمثير للدهشة أن بعضا منهم

يتباعد عما ما يتباعد من قول عن العقل، ثم إذا به يقع فريسة للقتلة فى داعش والقاعدة فهم يأتون إليه مباشرة وبحسم وعزم وابتعاد عن التعقيد وعن الاستقصاء فإذا به يقع فى شباكهم ويتحول من رافض لأقوال فقهية معقدة هى واستقصاءاتها إلى متوحش يقاتل باسم ما يعتقد أنه إسلام ويذبح ببساطة فيكون من "الأخسرين إعمالا".

ولقد يتوقف شاب عند كلمة استقصاء سائلا عن معناها مع أنه نفر من فعل القول بها، دون أن يعرف أن هذا هو الاستقصاء. فالشاب وأى شاب مسلم يعرف أن نواقض الوضوء خروج ريح من بطنه، فإن اتاه من يعيد هذا القول يتقبله قطعا ولكن إذا ما تفيقه المتحدث فى فضائية أو الواعظ فى مسجد وقال فى استقصاء وقد سأل الفقهاء "ما حكم الشخص الحامل لقربة مملوءة بالفساء؟" هنا ينغلق عقل الشاب عن مواصلة السماع أو القراءة فالعقل يأبى أن يتقبل ، ويأبى أن يواصل، ويتباعد، والويل له ولنا إذ يتباعد، وإلى تداعيات هذا التباعد وهنا فإن الذنب فى كل ما سيفعله هذا الشاب المتباعد إذ ينقلب متباعدا بحق سيكون فى عنق اصحاب هذا الصنف من الفتاوى والاستقصاءات، فالشباب فى أيامنا غير السعيدة يظل دوما فريسة لفضائيات مسمومة بالتأسلم ولرجال دين قد يمتلكون ناصية الفقه لكن لغتهم معقدة ومتعالية ويظن صاحبها انه وحده صاحب القول الفصل فيما هو صحيح من الإسلام وأن شابا مثل حفيدى لو سأله وجادله كان مجرد متنطع .

ومدركا ذلك كله، وحريصا على قول بسيط وبلا استقصاءات مملة ومخلة، ولا تعقيد يتصور قائلة أن التعقيد هو بذاته هدف يمنحه مهابه وادعاء بالمعرفة، حاولت الاجابة على متى؟ وكيف؟ ولماذا؟ مؤملا أن أكون قد كتبت ما يفيد هذا الجيل الحائر من الشباب. .ومتمنيا أن يكون "رامى" حفيدى العزيز قد رضى واستضاء عقله بالإسلام الحقيقى وليس بالإسلام الزائف (فى تسميه للإمام محمد عبده) أو الإسلام المغشوش (فى تسميه للإمام أحمد الطيب شيخ الجامع الأزهر) وكلاهما هو التأسلم الذى يعيشه "الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا".

وإلى شبابنا ومنهم حفيدى كل الأمل فى أن يضيئ الإيمان الصحيح عقولهم وقلوبهم وأفعالهم، فينهضوا بمصر فى مواجهة دعاة التخلف والتأسلم ويتطلعوا بها إلى مستقبل مضيئ متقدم يتألق فيه العقل المصرى مبدعا وقادرا على بناء وطن حر وسعيد وسيد ، وقادر على العيش فى العالم بمتطلبات هذا العالم ويحقق المواطنة والرفاهية والعدل الاجتماعى فنصبح بالعزيمة والعقل والاقناع ضمن عالم الكبار، فنحن نستطيع ونحن نستحق.

د. رفعت السعيد

- فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر.
- وليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء.
- أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.
- إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.
- وجادلهم بالتى هى أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.
- إذهبا إلى فرعون أنه طغى فقولا له قولا لينا.
- قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.
- كل أمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله.

صدق الله العظيم

- "يخلف هذا العلم من كل خلف عدول، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويلات الجاهلين"

حديث شريف

- تحقر صلاة أحدكم أمام صلاتهم، ويحقر صوم أحدكم أمام صومهم، وهم يقرأون القرآن ولا يجاوز حلوقهم.

حديث شريف (رواه البيهقى فى سننه)

- ولتكن هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية معيارا نعتاد أن نعود لدى كل واقعة وكل ادعاء متأسلم.

(١)
المسلمون الأوائل .. كيف فهموا القرآن

إبتداء نحن لا نتكلم عن الإسلام وإنما عن مسلمين. فالإسلام معطى سماوى مقدس كامل الصحة أما البشر المسلمون فلهم آراء شتى كل منها يحتمل الصواب والخطأ. والحقيقة أن فى القرآن ما هو غامض ومستتر. إنه جزء من إعجاز القرآن مثل أن تبدأ الآية بأحرف مثل ا.ل.م ومثل ك.هـ.ى.ع.ص. ومع هذا الغموض تستقر دعوة قدسية للنظر العقلى ولاستنباط المغزى الكامن فى هذه الأحرف، كما أن القرآن استخدم الكلمة الواحدة بأكثر من معنى. ككلمة "الناس" "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى" والخطاب هنا للناس جميعا، وآية أخرى "والذين إذا قال الناس لهم إن الناس قد جمعوا لكم فإخشوهم".

ناس يقولون لناس أن ناسا آخرين قد جمعوا لهم، والحقيقة أن هذا الاعجاز يأتى فى لغة تستحقه فهى غنية بالكلمات متعددة

المعانى والتأويلات. فكلمة "تعالى" مثلا تستخدم على عدة أوجه فأحيانا بمعنى "النداء" "كتعالى إلى اجتماع أو لقاء"، وأحيانا للترفع، "أنه يتعالى علينا" أو على زملائه أو للتقديس "سبحانه وتعالى". وحتى فى تحديد إعراب الكلمة فنقول "سار" الرجل ويكون اعرابها "فاعل" فإذا قلنا "سار القطار" صار إعرابها "نائب فاعل" وكان هذا الثراء فى استخدام الكلمة الواحدة مثاراً لإبداع الشعراء منذ زمن الجاهلية وحتى الآن ونأتى بنموذجين لعلهما يكفيان

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل
على أننا نذيب الحديدا

فى ساحة العشق تقتادنا الغيد
ونقتاد فى الطعان الأسودا

ونتأمل الفارق فى استخدام كلمتى "نذيب" و"نقتاد" استخداما مبدعا

كذلك نتأمل قول حافظ إبراهيم

أمور تمر وعيش يمر
ونحن من الجهل فى ملعب

والإبداع فى الاستخدام لكلمتى "تمر" و"يمر" مجرد نموذج يتكرر فى الشعر العربى وحتى فى النثر المتقن. وتظل اللغة العربية بثرائها وبكونها لغة القرآن حصنا للعرب المسلمين فيرفضون أى تهاون إزاءها أو تجاوز لها.. فلما أتى العباسيون على رماح فارسية

ووصل الأمر إلى استخدام اللغة الفارسية فى تدوينات الدواوين (لاحظ الاستخدام الجميل للعلاقة بين "التدوين" و"الديوان") غضب العرب وصاغ المتنبى غضبهم شعرا متحدثا عن العاصمة بغداد

ويغدو الفتى العربى فيها
غريب الأهل واليد واللسان
ملاعب جنه لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان

ولعل كل ما سبق يفسر لنا لماذا اختلف المسلمون فى فهم القرآن، وتأتى الصيحة الأولى من على بن ابى طالب إذ حذر المسلمين قائلا "القرآن لا ينطق وهو مكتوب وإنما ينطق به البشر وهو حمال أوجه" ولعل ذلك يحدد لنا أن الأمر الإلهى استدعى إعمال العقل لفهم المغزى الكامن فيما أتى غامضا. وكيف أن استخدام العقل يختلف من إنسان لآخر حسب القدرة والمعرفة أو حتى حسب الهوى فتتراكم عبر مئات السنين وعلى امتداد البلاد واختلاف الأعراف مفاهيم بغير حصر بحيث يتعين على المسلم أن يعمل عقله وقلبه فى الفهم وفى الاختيار.

والأمر فى موضوع فهم ما أتى به القرآن قد يمتد به الخطأ إلى اقرب المقربين من الرسول. فعمر بن الخطاب سئل ما معنى "الأب" فى الآية "وفاكهة وأبا" فأجاب "لا أعرف" ثم أضاف نهينا عن التفقيه" (لاحظ أن ابن الخطاب استخدم ذات المنطق فى كلمة التأسلم للتفريق بين صحيح الإسلام وبين الفهم الخاطئ له).

والحقيقة أن ابن الخطاب كان قد تلقن درسا قاسيا إذ رفض تصديق ان الرسول مات وخرج على المجتمعين شاهرا سيفه صائحا"إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، وانه والله ما توفى، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، إذ غاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل أنه مات، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات" فقرأ أبو بكر بصوت مرتفع آيات من القرآن تقول"وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم" ثم يصيح فى الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت" فعاد عمر إلى صوابه. وبعدها فسر عمر الأمر كما يورد ابن الاثير قائلا انه اعتقد أن الرسول سيبقى حيا حتى يشهد على أمته يوم القيامة مستندا إلى ما فهمه من الآية "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" (ابن الاثير- الكامل فى التاريخ- الجزء الثالث ص ٧٧). وهكذا فحتى ابن الخطاب اخطأ لأنه كما سنرى اتبع الفهم النصى دون إعمال للعقل.

(٢)
قراءة متعجلة للخلافات

ومنذ اليوم الأول لتولى أبو بكر إختار المسلمون فى كيفية مناداته ويروى ابن الاثير فى كتابه "الكامل فى التاريخ" ، عندما ولى أبو بكر ناداه أحدهم "يا خليفة الله" فغضب صائحا إنما أنا خليفة رسول الله" ونمضى مع ابن الأثير "فعندما ولى عمر بن الخطاب ناداه المغيرة بن شعبة "يا خليفة الله فغضب عمر وقال "ذاك نبى الله داود. ومضى الحوار:

المغيرة - اذن اناديك يا خليفة رسول الله.

عمر- ذاك صاحبكم المفقود (يقصد أبا بكر)

المغيرة - يا خليفة خليفة رسول الله

عمر- ذاك أمر يطول

المغيرة - اذن أناديك يا عمر

عمر- لا تبخس مكانى شرفه، أنتم المؤمنون وأنا أميركم.

المغيرة - يا أمير المؤمنين. ورضى عمر.

وبرغم ذلك وجد تاريخ المسلمين شاعرا هو الفرزدق يتملق الحاكم قائلا :

فالأرض لله ولاهـــا خليفته

وصاحب الله فيها غير مغلوب

أما أبو بكر الطرطوشى فقد منح الحاكم دورا مستبدا لا مخرج منه فيقول فى كتابه "سراج الملوك" - ص ١٥٦) " فالله سبحانه وتعالى جبل الخلق على عدم الانصاف فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر، ولم يستقر لهم معاش، ومن الحِكَم التى وردت فى إقامة السلطان أنه من حجج الله على وجوده سبحانه، ومن علاماته على توحيده، فالعالم بأسره فى سلطان الله، كالبلد الواحد فى يد سلطان الأرض" ثم يقول "وإذا كان السلطان قاهرا لرعيته كانت المنفعة به عامة، وكانت الدماء فى أهبها محقونة، والحرم فى خدورهن مصونه، والأسواق عامرة والأموال محروسة". وهكذا فإذا أراد المسلمون الخير لانفسهم فلابد أن يتقبلوا حكما ظالما وباطشا" وهذا ما يؤكده الماوردى "أن أهل الرأى متى عقدوا البيعة للامام لا يجوز لخلوق نقضها لأن الرعية عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للامام ما وسعتهم الطاعة، ولا يحل لهم القيام عليه بحال" (أبو الحسن الماوردى- الأحكام السلطانية) . أما المعلم الثانى أبو نصر الفارابى فيقول فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة -

طبعه ٢٠٠٢- ص١٨٩) "فرئيس المدينة الفاضلة هو أكمل اجزاء المدينة فيما يخصه، وكما أن القلب يتكون أولا ثم يكون هو السبب فى أن يقوم بتكوين سائر اعضاء البدن، كذلك رئيس هذه المدينة ينبغى أن يكون أولا ثم يكون هوالسبب فى تحقق المدينة الفاضلة، وإياه يقصد بجميع أفعال المدينة، ويكون الإنسان الذى لا يرأسه إنسان أصلا وإنما يكون ذلك الإنسان الذى استكمل عقله فصار عقلا ومعقولا بالفعل، واستكملت قوته بالفعل غاية الكمال وتكون نفسه متحدة بالعقل الفعال فيقف على كل فعل يمكنه أن يبلغ به السعادة". وإذا كان الشعراء فى هذه الأزمنة هم اللسان الإعلامى للحاكم وهم القادرون على التأثير فى العامة فقد وظفوا بلاغتهم فى تملق الحكام واستعطاء عطاياهم. ولنورد بعضا قليلا من النماذج.

أن الخليفة قد أبى / وإذا أبى شيئا أبيته.

ثم يتفوق جرير قائلا:

ذو العرش قدر أن تكون خليفه
وملكت فأعل على المنابر وأسلم

وشاعر آخر..

ابوك خليفة وكذاك جدك / وأنت خليفة وذاك هو الكمال

لكن ابن هانئ الاندلسى يتفوق على الجميع فى نفاق يصل إلى حد الهرطقة فيخاطب الخليفة قائلا:

ما شئت لا ما شاءت الاقدار / فأحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمد / وكأنما انصارك الانصار

وعندما أمعن الحاكم فى قتل خصومة يطمئنه ابن كثير قائلا "ان للقاتل توبه. فإن تاب بدل الله سيئاته حسنات وعوض المقتول عن ظلامته وأرضاه عن ظالميه" وحتى لو أمعن الحاكم فى القتل يسهل عليه ابن كثير الأمر فيقول "أن من قتل مائة له توبه" (الحافظ بن كثير- البداية والنهاية فى الفتن والملاحم).

ولعل من افتتح باب هذا المنطق كان ابن المقفع الذى وقف فى مجلس معاوية ليفرض البيعة لابنه زيد قائلا "خليفة رسول الله هذا (وأشار لمعاوية) فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد) ومن أبى فهذا واشهر سيفه فى وجه الجميع" وبهذا كانت ولاية المتغلب.

(٣)
الخلاف حول الخلافة

ونبدأ بالتعريف اللغوى فنلجأ إلى القواميس.

- مختار الصحاح: الخليفة هو السلطان الأعظم. وجمعها خلائف أو خلفاء (كظريف وظرفاء). ويقال خلف فلان فلانا أى جاء بعده، وفى القرآن "أخلفنى فى قومى".

- الوسيط: الخلافة هى الامامة، والخليفة هو المستخلف والسلطان الاعظم والهاء للمبالغة

- موقع الخلافة فى الإنترنت: WWW.khilafah.net: الخلف عكس قدام. وهى رئاسة عامة للمسلمين جميعا فى كل الدنيا.

وقد وقع الخلاف منذ اليوم الأول لوفاة الرسول. وبرغم الآية الكريمة "وإنما المؤمنون إخوة" (الحجرات - ١٠) بما يتضمن رفض النزعات القبلية. وبرغم أن الرسول خطب فى الجميع يوم فتح مكة

"يا معشر قريش أن الله قد أذهب عنكم نخوه الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب". فإننا نقرأ للدكتور محمود سلام زناتى فى كتابه (نظم العرب فى الجاهلية وصدرالإسلام- ص٢٥٣). "غير أن التعاليم الإسلامية والتدابير التى إتخذها الرسول وإن افلحت فى إضعاف العصبية القبلية فإنها لم تفلح فى استئصالها". وقد أهتم المؤرخون القدامى والجدد وأصحاب الكتب التراثية بذلك الخلاف الذى نشب فى سقيفة بنى ساعده عندما طالب الانصار (الأوس والخزرج) بالخلافة وارتفعت حدة النقاش ونادى أحد الأنصار رجال المدينة بأن يأخذوا الخلافة أخذاً بسيوفهم، وتواجهت السيوف بالفعل لولا أن وقف ابو ذر الغفارى وصاح فى الأنصار ليذكرهم بمواقفهم فى حماية الرسول وفى الدفاع عن الإسلام فأغمدت السيوف وتولى أبو بكر. لكن سعدا ابن عبادة أبى أن يبايع وغادر الاجتماع. ويأبى بعض اصحاب كتب التراث ربما جهلا وربما تحيزا مع أو ضد وربما دون حرص إلا أن يسجلوا على مسلمى ذلك الزمان عنفا لا يقبله الإسلام ويستخدم حتى الآن فى كتب بعض المستشرقين للترويج للعداء للإسلام. وكمثال "يروى ابن ابى الحديد فى (شرح نهج البلاغة، الجزء الثانى، ص ٩)، قصة مفزعة عن اغتيال سعد بن عبادة فقد إمتنع عن مبايعة أبى بكر وامتنع عن مبايعة عمر، فأسفر إلى الشام، وهناك تم اغتياله وقيل أن الجن قد شكت قلبه لأنه بال واقفا، وهى واحدة المحاذير العربية فى ذلك الزمان. لكن الأدهى هو أن ابن ابى الحديد يحبذ هذا القتل ويعتبره تصحيحا للدين، فيقول :

يقولون سعدا شكت الجن قلبه / ألا ربما صححت دينك بالغدر
وما ذنب سعد أنه بال واقفا / ولكن سعدا لم يبايع ابا بكر
وقد صبرت عن لذة العيش انفس / وما صبرت عن لذة الأمر والنهى

وينسى المؤرخون خلافا آخر تمادى على مدى الزمان وحتى الآن . وهو ما يرويه تراثيو الشيعة فيتحدثون بحماس ضد ولاية أبو بكر ويهاجمون موقف عمر، وفى كتاب شيعى حديث مطبوع فى طهران (١٩٩٠) هو (سليمان كتانى- الإمام الحسين فى حله البرفير- قمر- إيران ص٣٢) نقرأ ما يتهم ابى بكر وعلى وعثمان بالعنجهية القبلية، ويقول نصا مختلقا لخطبه الوداع يتضمن الوصية لعلى. ويؤكد أن الخلفاء الثلاثة اخفوا الفقرة التى تقول "على منى وأنا من على من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم والى من والاه وعادى من عاداه، إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى، كتاب الله وعترتى أهل بيتى فأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض". ويقول الشيعة الإمامية أن من أدلة إستحقاق على بالخلافة قبل ابى بكر أن الرسول اختصه بتبليغ سورة براءة بالرغم من وجود ابى بكر أميرا على الحج قائلا "لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى، وهناك أدلة أخرى هى قول الرسول لعلى "أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبى بعدى" (راجع لمزيد من التفاصيل كتاب الشيخ ابو زهرة- خاتم النبيين) - وهو يفسر سر استبعاد على قائلا أن سيفه كان شديد الوطأة على بنى أمية فى معارك الرسول وقتل

منهم الكثير فظل الثأر كامنا فى نفوس الكثيرين منهم، ونعود للكاتب الشيعى مفسرا محور الخلاف الابدى فيقول "غير أن الوصية مدقوقة كالوشم على جبين على، لا التاريخ عمى ولا أى رجل كريم من رجالات ذلك العصر عمى عن قراءة الحقيقة، ولكن سياسة الزعماء المتشربين روح القبلية هى التى عميت" ويقول "لم يكن عمر بن الخطاب ضعيف السجية أنه كريم بين الرجال، ولكن عنجهية قبلية نائمة فى بطانة نفسه ما سمحت ولا قبلت أن يتقدم عليه وعلى أمثاله من وجهاء الجزيرة فتى لايزال أمرد، لقد كان حس ابن الخطاب بمركز الزعامة أرجح من حسه بقيمة الرسالة ، أن هناك خبيئة من الماضى الوخيم تعشش فى ضلوعه، أنها الدودة فى وزيعة الارث، أنها الاموية فيه ضد الطالبية الهاشمية تمرح بين الخطين وتقضم من لحمة السفيانية ضد الطالبية الهاشمية، وها هو غياب الرسول يعيد الدورة إلى مربعها الأول، وإذا الوصية لعلى هى التى تتناولها بالقضم. لقد وظف اجتماع سقيفة بنى ساعده ليبعد عليا عن حقيقته وحقوقيته فى الامارة، وإحلال أبى بكر فيها، كأن الرضوخ لمشيئة النبى هو الخطأ وفى المعصية الصواب". ورغم فجاجة هذا الادعاء من وجهة نظرنا إلا أن حقيقة تطل منه هى الصراع القبلى الممتد بين الطالبيين وبنى سفيان. ولم يكن الشيعة وحدهم فى هذا الموقف ولكن كان ثمة زعانف أخرى فهناك مثلا من أراد إذكاء الفتنة بعد فترة، وتحديدا بعد وفاة ابن الخطاب وهو عبد الله بن سبأ المسمى بإبن السوداء، وكان يهوديا من أهل صنعاء، أمة

سوداء وأسلم أيام عثمان وتنقل بين الحجاز والبصرة والكوفة والشام يريد إضلال الناس فلم يستجيبوا فأتى إلى مصر لما عرف عن أهلها من محبتهم لآل البيت، وقال لأهلها "العجب لمن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدا سيرجع وقد قال تعالى "أن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد". ووضع لهم الرجعة فقبلت منه ثم قال أنه كان لكل نبى وصى وعلى وصى محمد، محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء، فمن يكون أظلم ممن لم يجز وصية الرسول ووثب على وصيته، والله أن عثمان قد اخذها بغير حق فإنهضوا فى هذا الأمر وهاجموا أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر توقظوا الناس" (ابن الاثير- الكامل فى التاريخ- الجزء الثالث -ص٧٧) ويبقى أن نشير إلى أن أغلب قتلة عثمان كانوا من رهط الآتين من مصر.

ولعل ابن حنبل كان يشير إليه وإلى أمثاله عندما قال: رب حرب أهاجها قبيح الكلام".

ونواصل حديثنا عن الخلاف حول الخلافة بتأمل الخلاف الهاشمى- الاموى.

* * *

ويضع الكثير من الرواة مسئولية الانحياز لابى بكر على عاتق عمر بن الخطاب، فيقول ابن عباس أن عمرا قال لآل ابى طالب "إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا فى السماء شمخا بذخا" (ابن ابى الحديد - شرح نهج البلاغة، الجزء الثانى-

ص٩) لكن ابا بكرعندما تولى أكد دون خفاء "أنه لا يستطيع أن يسوس الناس بسياسة الرسول لاختلاف الطبيعة بين من كان له سلطان دينى وبين من ليس له هذا السلطان" فقد وقف يوم توليه الخلافة "أما والله ما أنا بخيركم ولقد كنت لمقامى هذا كارها، ولوددت أن فيكم من يكفينى" ثم يسأل " أفتظنون أنى أعمل فيكم بسنه رسول الله؟ ألا لا أقوم بها، أن رسول الله كان يعصم بالوحى وكان معه ملك، وإن لى شيطانا يعترينى، ألا فراعونى فإن إستقمت فأعينونى وأن زغت فقومونى" (أبو جعفر الطوسى- تلخيص الشافى- الجزء الأول- ص٩) وما أن ولى أبو بكر وفوجئ بالبعض من أهل الجزيرة يمنعون عنه الذكاة، حتى تشاور مع الصحابة وعلى رأسهم ابن الخطاب وإذ لمح التردد فى كلمات ومواقف أهل الشورى مبررين الأمر بالضرورات التى تبيح المحظورات خالفهم جميعا معلنا فى تشدد "والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله لقاتلتهم عليها" (ابن كثير - البداية والنهاية فى الفتن والملاحم، الجزء السادس ص ٣١١) وهكذا ومنذ البداية قرر أبو بكر أن الشورى غير ملزمة للحاكم. كما كان لعمر بن الخطاب خصوم من قومه ومن بنى أمية، كانوا يكرهون فيه زهده وقوله "والله لو استقبلت من أمرى ما إستدبرت لأخذت فضول الاغنياء لأوزعها على الفقراء". ولأنه كان يضيق الخناق حتى على الصحابة فى الامصار فى إستفحال ثرواتهم. ويروى أبو حيان التوحيدى "كان عمرو بن العاص يقول لعن الله زمانا عملنا فيه تحت أمره ابن

الخطاب، لقد رأيته وأباه وإنهما لفى شمله ما توارى أرساغهما، وإن العاص بن وائل (والد عمرو) لفى مقطعات من الديباج مزررة بالذهب" (ابو حيان التوحيدى- الامتاع والمؤانسة. الجزء الثانى - ص٩٥) وفى أواخر أيامه أدرك عمر أن الخلافة بعده لا يمكنها أن تخرج عن ستة أفراد فأوكل إليهم أمر الاختيار، فبدلا من تنازعهم فى الأمر يختارون واحدا منهم ليكون الخليفة قائلا "والله ما أردت أن أحمل وزرها حيا وميتا" تشاور عبد الرحمن بن عوف وكان منهم مع الباقين وتوجه لعلى فقال له "يا على ابسط يدك لأبايعك على كتاب الله وسنه رسوله وسيرة الشيخين" (يقصد أبا بكر وعمر) لكن عليا صاحب المواقف المبدئية التى لازمته طوال حياته قال "كتاب الله وسنه رسوله نعم، أما الشيخين فلهما رأى ولى رأى". فتولى عنه وذهب فبايع عثمانا. لكن عثمانا برغم سبقه فى الإسلام وإنفاقه على غزوات الرسول، كان ضعيفا وظل ضعيفا فإستهان به العرب، بما دفعه يوما إلى الصراخ من فوق المنبر "كان ابن الخطاب يغلظ عليكم، ويؤذيكم بلسانه ويده ويطأكم بقدمه ففخمتموه وعظمتموه، ألا إن حلمى هو الذى جرأكم على". ومات عثمان مقتولا وقبله مات ابن الخطاب مقتولا وبعده مات على بن ابى طالب مقتولا. وأتى معاوية وعندما لاحظ بعض انصاره أن لا أحد من الصحابة وقف معه ضد على. قال "والله لاشترين دينهم بدنياى" وبدأ فى الانفاق الباذخ عليهم فلان البعض، واعتكف البعض فى المدينة مبتعدين عن مركز سلطة معاوية فى الشام، وكذلك فعل آل

بيت رسول الله، ومع استعار حدة الخلاف بين رهط ابى طالب ورهط بنى أمية لجأ معاوية إلى وضع احاديث زعم أنها للرسول وقال "والله ما أردتها لنفسى لولا أن رسول الله قال لى يا معاوية إن حكمت فأعدل" وحديث آخر "أتى جبريل إلى رسول الله وقال له يا محمد أن معاوية هو أمين هذه الأمة من بعدك".

ولما أراد معاوية توريث ابنه يزيد للخلافة أعلن حديثا مكذوبا آخر "الخلافة بعدى ثلاثون عاما وبعدها ملك عضوض" وأوهم الحسن انه سيوليه من بعده، ووثق به الحسن ولكنه قتل مسموما. ومع الاستناد إلى إحاديث كان الناس يعرفون أنها كاذبة تجبر معاوية ومن أتوا بعده من الخلفاء الأمويين ومارسوا حكما متشددا وطاردوا خصومهم واستعادوا كل إرث العداء القبلى القديم. ونكلوا ببنى طالب تنكيلا وحشيا يتسم بالمكايده والاذلال. فعندما تولى يزيد ورفض أهل المدينة مبايعته أرسل جيشه لغزوها وأباحها لمدة ثلاثة أيام ويقال أنهم افتضوا بكارة ألف فتاة وفرض عليهم بيعة العبيد. فالحر يشترط فى بيعته "على كتاب الله وسنه رسوله" أما العبد فلا يحق له أن يشترط فيقول "ابايعك" فقط.

وامعن يزيد فى الزهو والانتقام من بنى طالب ومن الأوس والخزرج الذين ساندوا الرسول فى غزوة بدر ضد جيش جده أبى سفيان. وصاح فرحا :

ليت أشياخى ببدر شهدوا

فزع الخزرج من وقع الأسل

لأهـلـوا واسـتـهـلـوا فـرحـا

ولـقـالـوا لـيـزيـد لأفـشـل

ويصيح شاعر آخر :

إذا فـاخـرتـمـونـا فـإذكـروا

مـا فـعـلـنـا بـكـم يـوم الجـمـل

وعـفـونـا فـنـسـيـتـم عـفـونـا

وكـفـرتـم نـعـمـة الـله الأجل

ويبلغ الحماس الشديد التعصب بامرأة هى أم حكيم أنها كانت تخوض المعارك وهى ترتجز

أحمل رأسا قد سئمت حمله / وقد مللت دهنه وغسله / الا فتى يحمل عنى ثقله

ومع توحش الخلاف والخلفاء تدخل الفقهاء بنظريات مثل "المرجئة" الذى دعوا لارجاء البحث فى الخلاف بين عثمان وعلى ومعاوية إلى الله ليحكم بينهم. وآخرون ظلوا يحضون الناس على الخضوع لظلم معاوية بنظرية "القضاء والقدر" فالقضاء هو علم الله الأزلى أما القدر فهو نفاذ هذا العلم" فكل ما يقع على الناس من ظلم مكتوب ومقدر سلفا والتمرد عليه تمرد على الإدارة الإلهية .

ويظل الخلاف محتدما .

(٤)
ومزيد من الخلاف حول الخلافة

وأتى العباسيون ليحتاجوا أمرين لتمكين سلطتهم، وأولها "سيف وبطش" العباس الملقب بالسفاح ، وثانيهما مزيدا من الاحاديث المكذوبة، فهى المرة الأولى التى يتولى فيها السلطة "الموالى" (أى غير العرب) وخاصة الفرس ولتبرير ذلك كان حديث يقول "سئل رسول الله عن الآية الكريمة "فإن تتولوا نول قوما غيركم" . من هم هؤلاء القوم؟ فوضع الرسول يديه على منكبى سلمان الفارسى وقال : هذا الفتى ورهطه، والله لو كان الإيمان منوطا بالثريا لناله قوم من فارس" وكان لابد من رد عربى، وكان "قال رسول الله إذا اختلف المسلمون فالحق فى مضر" . لكن الصراع بقى كما كان دوما بين بنى أمية وبنى طالب وإن كان قد تبدى ايضا فى بعد اجتماعى وطبقى، ويضع ابو حيان التوحيدى (الامتاع

والمؤانسة- جزء٢- ص ٩٥) يدنا على بداية الخيط، "كان عمر واحدا من فقراء قريش وكان يعمل دلالا فى السوق وهى مهنة متواضعة. وكان ذا نزعة تتعاطف مع الفقراء وترفض الثراء الفاحش الذى تزايد مع اتساع الفتوحات". ويروى أبو يوسف فى كتابه "الخراج" أن عمرا قال قبل حلول موعد تقسيم العطاء "لئن عشت إلى هذه الليلة لألحقن أواخر الناس بأولاهم حتى يكونوا فى العطاء سواء" ويضيف أبو يوسف فى دهاء "ولكنه اغتيل قبل أن يحل موعد العطاء" (ص٤٦) ويروى ابن الاثير أن عمرا قال "أن رسول الله قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالتزجية، وإنى قدرت فوالله لأضعن الفضول فى موضعها ولأتبلغن بالتزجية" (الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٥ هـ- باب فرض العطاء وعمل الديوان) والفضول هى الأموال الفائضة. معلنا بذلك أنه ينوى التنازل عن أمواله محتفظا فقط بما يكفيه لعيش الكفاف. وما كان لاثرياء قريش أن يصبروا على ذلك. ويروى الطبرى أن عمرا قال "لو استقبلت من أمرى ما إستدبرت لأخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على الفقراء" (أبو جعفر الطبرى- تاريخ الرسل والملوك - حوادث عام ٢٣هـ) ثم يقول فى دهاء ايضا "كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من المدينة إلى الامصار إلا بإذن وأجل مسمى" ثم يواصل ليقول: "أن الشعبى قال لم يمت عمر حتى ملته قريش وكان قد حصرهم فى المدينة قائلا أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد" (حوادث عام ٢٣هـ) ويقول الشعبى "وما أن

جاء عثمان حتى رفع الحجر عن قريش فتنقلوا فى البلاد فكان أحب إليهم من عمر" (حوادث ٢٣ هـ). ويروى عن طلحة "لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى إتخذ رجال من قريش أموالا فى الامصار وتجمع حولهم الناس وصار لكل منهم حاشية وأتباع" (حوادث عام ٣٦هـ) ويقول ايضا نقلا عن عبد العزيز بن سياه أن عبد الله بن عمر صاح بعد مقتل والده "والله لاقتلن رجالا ممن شاركوا فى دم أبى، وأنه كان يقصد رجالا من المهاجرين والانصار" ألم نقل أن الصراع قد اتخذ بعدا اجتماعيا وليس قبليا فى بعض الاحيان" ويواصل الطبرى دهاءه موحيا أن عمرا كان يتوقع شيئا من ذلك وأنه تساءل وهو يحتضر "أعن ملأ منكم كان هذا؟ وكانوا يجيبونه "معاذ الله" (أى هل هو عن تواطؤ من بعضكم) ويتوقف هادى العلوى فى كتابه (الاغتيال السياسى فى الإسلام، ص١٥) ويقول "أمام هذه الروايات نسأل هل بالإمكان الاعتداد بهذه الحكايات بأن الأمر كان ثمرة مريرة لصراع اجتماعى بين ارستقراطية قريش الناشئة وبين عمر"؟. وقد تحول الصراع الدموى فى الأسرة الواحدة حول تولى الحكم الذى كان مطمعا للجميع وارتدى كل ذلك رداء دينيا. واتخذ معاوية الماكر سلاحا جديدا لاغتيال خصومه وهو السم، وكان الطبيب ابن آثال هو من يستحضره له" (ابن أبى اصيبعه-عيون الانباء فى طبقات الأطباء - ص ١٧٤) ويروى الاصفهانى "لما أراد معاوية أن يظهر الولاية لابنه يزيد قال لأهل الشام "أن أمير المؤمنين قد كبرت سنه ودق عظمه واقترب أجله ويريد أن يستخلف عليكم" محاولا بذلك

أن يتعرف على منافسي يزيد، فقال الكثيرون عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وسكت معاوية واضمرها في نفسه وأمر بقتل عبد الرحمن بالسم" (الاصفهاني - الاغاني- جزء ١٦-ص١٤٠)، فقام إبن عبد الرحمن بقتل ابن آثال. وعندما قبض عليه قال لمعاوية "قتلت المأمور وبقي الآمر" (ابن عساكر- تهذيب تاريخ دمشق، الجزء الخامس، ص ٩٥).

ويكاد أغلب الرواة أن يجمعوا على أن الحسن قد مات مسموما. وقد كان الحسن مسالما فعلا ولا يسعى لاراقة دم مسلم من أجل الخلافة ويروى الحسن البصرى انه لما كانت فتنه ابن الاشعث دخل جماعة على الحسن فقالوا: ما تقول في هذا الطاغية (الحجاج الثقفي) الذى سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة وفعل.. وفعل.. ذاكرين له العديد من أفعاله فقال لهم: لا تقاتلوه فأنه أن يكن عقوبة من الله فما انتم برادى عقوبة الله بأسيافكم، وأن كان بلاء فإصبروا حتى يحكم الله بينكم والله خير الحاكمين" (ابن عساكر- المرجع السابق).

وقد خدع معاوية الحسن واجرى معه اتفاقا أن يسالمه على أن يخلفه بعد وفاته وراهن الحسن على أن معاوية اكبر منه سنا ولكن إذ أصبح معاوية كهلا أصبح يزيد شابا ولم يعد ثمة مكان للحسن".

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز قد قتل مسموما بأيدى أهله، فابن حجر يقول "سقاه بنو ابيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيرا مما في أيديهم" (الكتبي- الوفيات- الجزء الثاني- ص١٠٥) والإمام ابو

حنيفة قتل فى السجن، أما بالسم أو بالتعذيب (ابن حجر- الخيرات الحسان ص ٦٧) وحتى صراعات الخوارج كانت ايضا صراعا على السلطة فقرروا اغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص واختاروا ثلاثة "فدائيين" لقتلهم فى ساعة واحدة عند صلاة الفجر يوم ١٩ رمضان. أحدهم قتل عليا فى الكوفة. والثانى ضرب معاوية فجاءت الضربة فى إليته، أما الثالث فقد قتل من اعتقد انه عمر بن العاص، الذى كان مريضا أو ربما تظاهر بذلك وانا ب عنه فى الصلاة خارجه.. وصار المثل المشهور اردت عمرا وأراد الله خارجه.

وهكذا كان مسرح الصراع على الخلافة بالأساس مسرح قتل واغتيال

(٥)
الإمام على

ولأن على بن أبى طالب كان وظل وسيظل محوراً للاختلاف. وحتى محبوه يختلفون مع بعضهم البعض اختلاف عداءً لا ينتهى وربما سيبقى أبدا. ولأن الصراع بين المسلمين والمتأسلمين يتواصل قدر كبير منه حول منحى تقديرهم لعلى. فالسنة يبجلونه بإعتباره السابق فى الإسلام وإبن عم الرسول، والمطيع لما أمره الرسول به، فنام فى فراشه يوم الهجرة وهو يعلم غدر الكفار، وهو الشهيد ابو الشهداء وجد الشهداء الذين يمضون فى سلسلة من مصارع الجهاد والهزيمة.. حتى أن أبو العلاء المعرى تجرد من كل ظنونه وشطحاته وصاح متأملا سيرة على ومسيرته فقال :

وعلى الأفق من دماء الشهيدين / على ونجله شاهـــدان
فهما فى أواخـــر الليـــل فجران / وفى أولياته شفقـــان

والشيعة يمجدونه ويقدسونه ويؤكدون حقه وحقوقيته فى خلافة الرسول . ويراه الشيعة الإمامية أنه الوصى ويعتقدون بعصمته. ويقول بعض فقهاء الشيعة الأثنا عشرية بأن عليا مساو للرسول إلا فى النبوة.. وحتى فى زماننا الحديث قال الخمينى وكان من أهم مراجع الشيعة الأثنى عشرية "أن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل، وتعتقد الشيعة الزيدية وهم ينتسبون إلى زيد بن على (وهو من ذرية على ابن ابى طالب) "أنه أفضل أمة محمد بعد الرسول ثم تأتى فاطمة من بعده وبعدها الحسن والحسين ثم ذريتهما" ووصل الأمر أن جماعة عبد الله بن سبأ أعلنت ألوهية على وأطلق عليهم الروافض. ونقرأ فى عباس العقاد (عبقرية الإمام على -ص١٣) أن عليا نهاهم عن عبادته فرفضوا طاعته فى ذلك فإستتابهم فأصروا فأمر باحراقهم فى النار فكانوا يصيحون وهم يساقون إلى الحفرة الموقدة "انه الله، وانه هو الذى يعذب بالنار". بينما غلاة الخوارج يقولون بكفره وطالبوه فى حواراتهم بالتوبة، فلما رفض وزارهم فى معسكرهم فى حارواء ليجادلهم بادره أحدهم قائلا "أنت تعلم يا على أننا نتقرب إلى الله بالعمل على قتلك" فيرد على فى هدوء إنما أنتم من نزلت الآية الكريمة فيهم إذ تقول "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا". ويلخص على هذه المواقف المتناقضة "ليحبنى أقوام حتى يدخلوا النار فى حبى، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار فى بغضى" ويقول

"يهلك بسببى رجلان: محب مفرط بما ليس فى ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى. وكان على فارسا شجاعا قوى البنية. وفى غزوة الأحزاب قتل اشجع وأقوى فرسان العرب عمرو بن ود. ولم يكن على مجرد مقاتل وإنما كان واحدا من أهم المفكرين فى زمانه فهو الذى اقترح على عمر استخدام التقويم الهجرى، كما كان يسعفه بالقول الشرعى فى المسائل الفقهية، وكان عمر يأخذ دوما بمشورته ويقول علنا لولا على لهلك عمر" ويقول "أعوذ بالله أن اعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن" (تاريخ الطبرى) وهو لم يبدأ أحد بقتال فإذا فرض عليه قاتل بشجاعه ومقدرة. وعندما كان الخوارج يجمعون جموعهم ليحاربوه طالبه أنصاره البدء فى تشتيتهم فرفض وقال "لا أقاتلهم حتى يقاتلونى وسيفعلون". ونصح ابنه الحسن "لا تدعوا أحدا إلى مبارزة فإن دعيت إليها أجب، فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع" وفى معركة صفين إحتل جنود معاوية بئر الماء وصاحوا بعلى ولا قطرة ماء واحدة حتى تموت عطشا، فأرسل جنده وطردوا جند معاوية وامتلكوا الماء وأمر على جنده أن يسمحوا لهم بشرب الماء. وكثيرا ما أطلق عليا أقوالا تنم عن خلق قويم مثل "إياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها، وإعلم أن الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب". ورغم أن عليا كان يعتقد بأحقيته فى الخلافة، وأبدى بعضا من غضب عند مبايعة أبو بكر لكنه رفض تحريض المحرضين. واعتكف فى بيته حتى أتم جمع القرآن ويقال أنه نسخ منه ثلاث نسخ. وكان يقول للمسلمين "يا

آيها الناس أن كمال الدين فى طلب العلم والعمل به ؛ وطلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، أن المال مقسوم مضمون ، والعلم مخزون عند أهله ، وقد أمرتم بطلبه من أهله فإطلبوه" . وفى حرب صفين سمع على قوما من أهله يسبون أهل الشام وجند معاوية فقال أنى أكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان ذلك أصوب فى القول وابلغ فى العذر ، وبدلا من سبهم قولوا اللهم احقن دماءهم ودماءنا ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويكف عن العدوان والغى من نهج به" .

ويمضى على بين رجاله وخصومه متمسكا بخلق إسلامى لم يعد له سوق فى سياق الحرب الضارية وكان أن اكبره جمع ونفر منه جمع آخر . فكثير من رجاله غضبوا منه عندما وجد عمرو ابن العاص جريحا وملقيا فى تراب المعركة متظاهرا بالموت وكاشفا عن عورته فستر عورته وتركه وهو أعدى أعدائه والاشد خطرا عليه . وكان زاهدا زهدا اغضب منه المتطلعون للمال من رجاله . وقد روى النضر بن منصور عن عقبه بن علقمة قال "دخلت على الإمام على فإذا به بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر خبز يابسة فقلت يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟ فقال لى كان رسول الله يأكل ايبس من هذا ، ويلبس أخشن من هذا وأشار لثيابه ، فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به" . ولابد لنا أن نستعيد قوله "علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث

ينفعك ، وألا يكون فى حديثك فضل على علمك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك" ؟

* * *

ثم تغير الزمان سريعا ، بل سريعا جدا . وصرخ أبو ذر الغفارى "والله لقد حدثت اعمال ما أعرفها والله ما هى من كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله أنى لأرى حقا يطفأ وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا وأثره بغير تقى" . لابد لنا أن نتأمل هذه الكلمات التى تتبدى وكأنها مرثية لزمن كان فيه المسلمون مسلمون حقا . ويفسر ابن خلدون الأمر "بأنها لحظة الاختيار بين الخلافة والملك" . والحقيقة أن عليا كان يرى نفسه أحق بالخلافة ولكن دون تمرد أو إلحاح . ويقول الرواه أن أبى سفيان بن حرب بن أمية جاء عليا يوسف السقيفة قائلا أبسط يدك لابايعك وأنصرك بالرجال والخيل" وكان ذلك بعد تولى أبو بكر فأجابه على "يا أبا سفيان لطالما عاديت الإسلام وأهله ، فلم يضره شيئا ، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا" والحقيقة أن أبا بكر وعمر كانا يمسكان كبار الصحابة بالحجاز محاذرين من اقبالهم على الدنيا ، فيشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلاب الدنيا ، فيتصدع شمل الأمة" . وقد فزع أبو بكر من أن كثيرين قد ازدادوا ثراء بسبب اتساع الفتوحات وكثرة الغنائم فأوصى عمرا قائلا "أحذر هؤلاء النفر من أصحاب الرسول الذين انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم نفسه ، واعلم أنهم لا يزالوا منك خائفين ما خفت الله" . ويقول الطبرى "كان مع على

جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه، وهم خلق كثير يتفرقون فى الحواضر والبوادى ولايزالوا منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين، لا يرضون عن الدنيا ولا من رضى بها، ولا يستمعون إلى أمر ألا أن يكون فى رأيهم وفاقا لحكم القرآن". وإذا كنا قد حذرنا من أن كثيرا من هذه الأقوال تحيطها الشكوك فى مدى صحتها أو دقتها، فلاشك أنها تعكس مناخا عاما استشعره عمر وحذر منه وتوعد بوضع حد لهذا المناخ الذى وصفه أبو ذر فى عبارته السابقة، وتحدث عنه اغلب الرواه بما يمكن وصفه بأنه تمايز طبقى، وتزايد فى ثراء كبار القوم بما نالوه من عطايا. ولعل هذا ما دفع معاوية عندما لاحظ أحد اتباعه أن أحد من الصحابة لم يسانده فى موقفه من على فقال "والله لاشترين دينهم بدنياى". أنها نفحات صراع مجتمعى ستنتهى حتما بما اسماه معاوية بالملك العضوض. وعندما جاء عبد الرحمن بن عوف إلى على وطالبه بأن يبسط يده ليبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين (أبو بكر وعمر) الالتزام بسيرة الشيخين رفض على وقال كتاب الله وسنه رسوله لهم أما سيرتهما فلهما رأى ولى رأى".

وهنا نتوقف. كان على يريدها وغضب إذ ذهبت إلى عثمان. لكن اصراره على موقف مستقيم وغير مراوغ ولا مناور دفعه إلى رفضها. رجل مستقيم فى زمن تتساقط فيه سريعا عناصر الاستقامة، عادل فى زمن اسرعت فيه موازين العدل بالاختلال. وأنا اعرف أن علم التاريخ لا يأخذ بمسألة "لو أنه قبلها" لكن رفض على

مصرا على موقف مستقيم وصريح وقاطع جاء فى زمن غير زمان هذا الموقف، فبايع ابن عوف عثمان واعتبرها على تعصبا من بنى امية ضده وقال "ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل" لكن الفوارق الطبقية تمادت خاصة بعد أن تمادى عثمان فى تفضيل بنى أمية وبعض الصحابة ومنحهم العطايا والهبات. ويتلمس ابن خلدون ذلك ويجد له تفسيرا فى ثورة أهل الامصار على الولاه الذين أوفدهم عثمان إليهم ويقول أن الثوار القادمين من مصر ليحاصروا بيت عثمان ويخلعون بيعته كانوا يريدون عليا لما اشتهر عنه من عدل واصرار على المساواة. ويروى الطبرى أن عليا حاول حماية عثمان وبكى لمقتله وانه كان كارها لأن يخلفه. ويقول الطبرى وكذلك ابن خلدون أن عليا ما قبلها إلا بعد أن حذروه من وقوع شقاق بين المسلمين. ويرى بعض الرواه أن أول من بايع عليا كان طلحة والزبير ويقول الطبرى أن أقارب عثمان وكثره من الأمويين لم يبايعوه وغادروا إلى الشام. ويكاد اجماع الرواه أن يأتى إلى أن عليا ومنذ اللحظة الأولى لخلافته قد اعلن بلا مواربة انه لا تفضيل ولا تمييز بين المسلمين وانه سيسترجع ما اقتطع من أموال بيت مال المسلمين بواسطة عثمان لأقاربه والمقربين. ويقول ابن الجوزى "فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم فما هم بواجدية فى غير على بن ابى طالب الذى قال "أن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر" ونعود لنسأل حول مدى امكانية تقدير موقف على من الخلافة، هو يريدها ولا يريدها. أو بالدقة يريدها

بشروطه المستقيمة في زمان اصبحت الاستقامة امرا غير رائج. ونقرأ لعباس العقاد في كتاب " عبقرية الإمام علي" كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة علي رضي الله عنه، "فالعهد كله غامض مجهول والموازين كلها منقوصة مختلة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الاعمال" ثم (ص٦٧). ثم كان أمر الخلاف مع معاوية. فمعاوية بادر باتهام علي بالتقصير في حماية عثمان من الثائرين عليه وهم ألوف غاضبه، فماذا فعل هو عندما دخل بيت عثمان بعد مقتله وخاطب عائشة ابنة عثمان "يا ابنة أخي أن الناس اعطونا واعطيناهم أمانا واظهرنا لهم حلما تحته غضب واظهروا لنا طاعة تحتها حقد فإن نكثنا بهم نكثوابنا".

.. إنه قميص عثمان كما يقول التاريخ..

ثم كانت معركة صفين بين علي ومعاوية. وكان علي إذ ولي الخلافة قد عزل كثيرا من ولاه عثمان على الامصار، لكن معاوية رفض قرار عزله ورفض مبايعة علي معلنا انه لن يبايع إلا بعد الاقتصاص من قتلة عثمان، وفيما كان جيش علي قرب مشارف النصر اقترح عمرو بن العاص حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح مطالبين بتحكيم القرآن. هتف علي في رجاله لا تصدقوهم فإن هي إلا حيلة وقال انه أدرى بهم فقد لاعبهم وهم صغار في ملاعب قريش وكانوا شر إخوان".

لكننا نتوقف أمام رسائل متبادلة بين علي ومعاوية، وفق ما رواه ابن الجوزي في تلبيس ابليس قال علي "أما بعد فإن بيعتي في

المدينة لزمتك وأنت فى الشام لأنه بايعنى من بايعوا ابو بكر وعمر وعثمان، فلم يكن لشاهد ان يختار ولا لغائب أن يرد وانما الشورى للمهاجرين والانصار"، ثم ختم رسالته قائلا "واعلم انك من الطلقاء الذين لا تحل لهم خلافة ولا يدخلون فى الشورى (وقد اطلق معاوية وابوه بعد اسرهما يوم فتح مكة). ورد عليه معاوية قائلا "لو بايعك الذين ذكرت وانت برئ من دم عثمان لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان، وقد ابى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتله عثمان"، ونعود إلى يوم صفين. ويقول ابن خلدون "أن عليا حذر المسلمين من الخديعة لكن زيدا بن فدك لكزه وقال "اجب إلى كتاب الله وإلا القينا برمتك إليهم وفعلنا بك ما فعلنا بعثمان، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك" واقترح الاشعث بن قيس اكبر سادات كنده أن يختار كل طرف حكما واختار معاوية عمرو بن العاص فقال الاشعث "فإنا نختار ابا موسى الاشعرى ورفض على واقترح ابن عباس فقال الاشعث انما نريد رجلا هو منك ومن معاوية سواء" وبعد جدال استسلم على وقال "اصنعوا ما بداكم" (ابن الاثير - الكامل فى التاريخ). وبعد طول مداولة اتفق الحكمان على خلع على ومعاوية معا. واعلن الاشعرى "قد إجتمع رأيى ورأى عمرو على خلع على ومعاوية وانى قد خلعت عليا ومعاوية" ووقف ابن العاص وقال ها قد سمعتم الرجل وقد خلع صاحبه وانا اخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية"، وصاح الاشعرى محتجا والتهبت الفتنة، ثم كان خروج الخوارج

الذين صاحوا "لا حكم إلا لله وان كره المشركون" وهاجموا رجال على وما هى إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج وبقى منهم حوالى اربعمائة مصاب عاجزين عن القتال فحملوا إلى عشائرهم" . لكن التطرف كثيرا ما يستثير حمية البعض فتجمع كثيرون فى حروراء. ويقول ابن عباس وقد زارهم لمجادلتهم "رأيت اناسا لم أر اشد منهم اجتهادا، جباههم قرحة من السجود، مشمرين مسهمة وجوههم من السهر والقيام" (ابن الجوزى- المرجع السابق) ويقول جندب المرادى "لما ذهبنا إلى الخوارج مع على لمناقشتهم كان لهم دوى كدوى النحل من قراءة القرآن" (ابو الحسن الاشعرى- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين). ويقول ابن الجوزى "وكانوا يوظفون هذه المسحة الإيمانية فى قتالهم فيصيحون ببعضهم تهيأ للقاء الرب- الرواح الرواح إلى الجنة" . وفى جدالهم مع على قال احد امرائهم حرقوص بن زهير يا على لا نريد بقتلك إلا وجه الله والدار الآخرة . فرد على "بل منكم كما قال تعالى عنهم "قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا" ويستعيد جندب المرادى الحديث الشريف "تحقر صلاة أحدكم إلى جانب صلاتهم وصوم أحدكم إلى جانب صومهم وهم يقرأون القرآن ولا يجاوز حناجرهم. ثم كان أن اجتمع ثلاثة من غلاة الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمر بن بكر التميمى "والقوا وزر الدماء التى سفكت على ثلاثة ممن أسموهم أئمة

الضلالة وهم على ومعاوية وعمرو بن العاص وتكون تراجيديا التاريخ فمعاوية وقعت الضربة على إليته اما ابن العاص فقد مرض وقال البعض بل تمارض وقتل خارجه بدلا منه ، أما على فقد قتله ابن ملجم بسيف نقع فى السم لثلاثة ايام، وفيما كان يحتضر قال "يا بنى عبد المطلب لا اريدكم أن تخوضوا فى دماء المسلمين ولا تقتلوا أحدا إلا قاتلى" وقال للحسن "أنا أن مت من الضربة فضربه بضربه ولا تمثل بالرجل" وقال "ابصروا ضاربى واطعموه من طعامى واسقوه من شرابى وأن هلكت فإقتلوه".

مات على وهو من كان رومانسيا فى زمن بارت فيه الرومانسية ولم يبق سوى الملك العضوض والغل القاتل، الذى تمثل فى شعر لعمران بن حطان احد غلاة امراء الخوارج يمتدح فيه ابن ملجم المرادى قاتل على:

لله در المرادى الذى سفكت / كفاه مهجة شر الخلق إنساناً
أمسى عشية غشاه بضربته / مما جناه من الآثام عريانا
يا ضربة من تقى ما أراد بها / إلا ليبلغ من ذى العرش رضواناً

ويرد عليه بكر بن حماد التهرتى:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة / هدمت ويلك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشى على قدم / وأول الناس إسلاماً وإيمانا
صهر النَّبى ومولاه وناصره / أضحت مناقبه نوراً وبرهانا

(الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد)

ويرحل على الذى عاش رومانسيا ومتمسكا بخط مستقيم..

وكان جزاؤه انه لم يقبل المناورة ولا الخداع، ولم يقل إلا ما يراه حقا ولم يقاتل إلا من بدأه بالقتال والذى صلى على اعدائه ودعا لهم بالغفران وتوعد الاغنياء بأن يسترجع ما نهبوا..

ويبقى حكم التاريخ معلقا حتى الآن وحتى آخر الزمان. لكن عليا يظل على الدوام يتمسح به الشيعة ويمسحون فى ساحته كل خطاياهم ويتمسح به السنة ويفعلون ذلك أيضا. وراجعوا الآن داعش والقاعدة وحزب الله ودعاوى الشيعة والمتأسلمين.

(٦)
الحسين أبو الشهداء

وبعد رحيل سيدنا على بن ابى طالب مقتولا كانت تصفيه الحسابات بين بنى أمية والحسن والحسين..

ويحدثنا عباس محمود العقاد فى مؤلفه الرائع "الحسين أبو الشهداء" وهو واحد من مجلدات عدة من مجموعة اسماها العبقريات الإسلامية. فيقول لنا فى الصفحة الأولى من المقدمة وكأنه يعزى الإنسانية كلها على مدى الزمان بأن خدام أنفسهم كثيرا ما يتفوقون على خدام العقائد والأمثلة العليا ولم يزل الشهداء يصلونها نارا حامية من عبيد ذواتهم ومصالحهم" ثم يمضى قائلا "مسكينة هذه الإنسانية لاتزال فى عطش شديد إلى دماء الشهداء، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الانانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصالح الزائلة" ويقول

"أن طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف، فلا تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من افرادها وهانت الشهادة على خدامها وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد.. لا عظه ولا نصيحة لكنها حقيقة فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها، ولا عمل لها إلا أن ينسى الفرد مصلحته بل حياته فى سبيلها. لابقاء للإنسانية بغير الاستشهاد".

وهكذا بدأ العقاد بحثه عن سيد الشهداء الحسين بن على. ويميز العقاد عبر صفحات المجلد الممتده عبر ثلاثمائة وثمانين صفحة بين قيمتين اساسيتين اعتبرهما محور صراعات الإنسانية وتقدمها وهما قيمة الأريحية (بما تتضمنه من أخلاق ورجولة وإباء وإيمان وتواضع) وبين قيمة المنفعة (التى تحول صاحبها إلى متوحش لا يعبأ بخلق أو دين) والحريص على المنفعة يمضى قدما إليها وينالها، أما صاحب الأريحية فإنه يترك ما يريد عندما يجد أن الحصول عليها يصطدم بالقيم والإيمان والأخلاق" ويمضى العقاد قائلا: "قلنا فى كتابنا عبقرية الإمام أن الكفاح بين على ومعاوية لم يكن كفاحا بين رجلين أو بين عقليتين، وإنما هو الصراع بين الإمامة وبين الملك الدنيوى، أو بين الأريحية والمنفعة، وهذه الحقيقة كانت جلية واضحة فى أذهان الفريقين بل واضحة حتى فى ذهن على وضوحها ذهن معاوية.

فلما انكر البعض من رجال يزيد بن معاوية هجومه على الحسين، وأشاروا عليه أن يكتب له رسالة يعتذر له فيها عما كان اجابهم يزيد "وما عساى أن اكتب أو أرد عليه، وما عساى أن أجد

عيبا فى الحسين والله ما أرى فيه للعيب موضعا" ، لم ير فيه أى عيب لكنه تأمر عليه وساق جيوشه ضده. والذين إنساقوا خلف معاوية ضد على مطالبين بدم عثمان سرعان ما اكتشفوا انه إنما نادى بالثأر لعثمان لغرض فى نفسه وهو "الملك" ، ولكن معاوية كان داهية من دهاة بنى أمية المعددوين، أما يزيد فكان فتى عربيدا يقضى نهاره وليلة بين الخمر والنساء ولا يفرغ منهما إلا وينطلق للصيد، ولا يبالى خلال ذلك تدريبا على الملك ولا استطلاعا لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه.

وهكذا فإنه إذا كانت المفاضلة بين على ومعاوية جائزة ويندفع إليها أصحاب الإيمان إيمانا بحق على وأصحاب المنفعة بما يملأ به معاوية جيوبهم بالأموال والعطايا. أما المفاضلة بين الحسين وبين يزيد فهى بعيدة كل البعد عن العقل أنها الاريحية الصريحة فى مواجهة المنفعة الصريحة ، وقد بلغ كلاهما فى موقفه الطرف الاقصى. وهكذا تألق الحسين بأشرف ما فى النفس الإنسانية من غيره على الحق وكراهة للنفاق والمداراة، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس من جشع وخضوع لصغار المتع" . وتمتلئ كتب السير بالحكايات والروايات عن الحسين ويزيد.

والحقيقة التى يجمعون عليها أن قتل على بن ابى طالب غيلة قد جعل الأمر خالصا فى يد معاوية، ثم "بايع اناس من اهل العراق وفارس الحسن بن على، ولكنه لم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدالهم، أما هو فكان كثير الصمت ويكره الجدل العقيم ويميل إلى

العزلة فصالح معاوية على شروط منها أن يترك له الملك حتى يموت ثم يليه الحسن، لكن معاوية لم يتركه حتى أوعز إلى زوجته جعدة بنت الاشعث أن تتخلص منه بالسم واعدا اياها أن يزوجها ابنه يزيد ويعطيها مائة الف درهم.. ففعلت، واعطاها المال ولم يف بوعد الزواج.

وكان الحسين ضد هذه المساومة بين الحسن ومعاوية واعترض عليها فزجره الحسن مهددا أياه أن يضعه فى غرفة مظلمة يغلقها بالطين حتى ينتهى الأمر، ولم يكن من خلق الحسين أن يناوئ أخيه الأكبر فرضخ. ولما اقترب معاوية من حافة الموت أوصى ابنه قائلا انه لا يخاف عليه إلا من "الحسين بن على وعبدا لله بن عمر وعبدالله بن الزبير، ومضى قائلا "وأما عبدالله بن عمر فهو رجل قد شغلته الدنيا، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن على فلا اظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرج إلى حربك فإن خرج وظفرت به فأصفح عنه فإن له رحما وحقا عظيما. وأما ابن الزبير فإنه خب ضب فإن واتته الفرصة وثب عليك فإن هو فعلها فقدرت عليه فقطعه إربا اربا إلا أن يلتمس منك صلحا". وقد حرص معاوية على إقرار امر يزيد فى الخلافة قبل أن يموت، ووالاه أهل الشام فبايعوا يزيد. وكتب معاوية إلى واليه على الحجاز مروان بن عبد الحكم كى يجمع الناس عنده ويأخذ منهم البيعة ليزيد، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالرفض، لأنه هو نفسه كان يتطلع للخلافة بعد معاوية، فلما وجد منه معاوية تقصيرا فى أمر بيعة يزيد عزله وولى

مكانه سعيدا بن العاص فلم يجبه أحد من أهل الحجاز إلى ما أراد فكتب معاوية إلى أهل على بن ابى طالب "عبد الله بن عباس" وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر والحسين بن على رسائل وطلب من ابن العاص أن يوصلها لكل منهم، ولم يستجب له أحد منهم، فسافر معاوية بنفسه إلى مكة ومعه جندا كثيفا واموالا كثيرة ودعاهم إلى مجلسه وقال لهم "قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم. ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموا يزيدا للخلافة وتكونوا انتم ولاة الأمر تعزلون وتأمرون وتجبون الاموال وتقسمونها، فأجابه عبد الله بن الزبير وخيره بين أن يصنع ما صنع الرسول إذ لم يستخلف أحدا أو كما صنع أبو بكر إذ عهد بها إلى رجل ليس من اقاربه أو كما فعل عمر فجعل الأمر شورى فى ستة اشخاص ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى ابيه. فقال معاوية غاضبا "هل لديك غير هذا؟" فقال لا. والتفت معاوية للاخرين يسألهم "وانتم؟" فوافقوا ابن الزبير فقال لهم "لقد اعذر من انذر" أنى كنت أخطب فيكم فيقوم لى أحدكم فيكذبنى على رؤوس الاشهاد فأحتمل هذا وأصفح وأنى قائم الآن لأقول مقالتى واقسم بالله لئن رد على احدكم بكلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه. ثم أمر حرسه بأن يقف فى المسجد على رأس كل واحد منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف. وقال لهم أن نطق واحد منهم ليرد على بكلمة تصديق أو تكذيب فإضرباه بالسيف. ثم خرج بهم إلى المسجد وصعد إلى المنبر فحمد واثنى

عليه وقال "هؤلاء الجماعة قادة المسلمين وسادتهم وخيارهم ولا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلا على مشورتهم وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا أنتم فبايع الناس، واسميت هذه البيعة ببيعة المكره وأفتى اغلب الفقهاء بعدها خوفا من معاوية بأن "طلاق المكره باطل" ثم بعدها ومع ضعف الدولة الأموية اكدوا أن بيعة المكره باطلة ولكن بعد فوات الأوان.

وكان الحسين يعرف كيف يسكت على مضض كي يحمي المسلمين من الفتنة ويذكرون أن الحسن رضي الله عنه اوصى أن يدفن إلى جوار جده رسول الله إلا إذا كان هناك خوف من فتنة، فلما توفى الحسن أرادوا انفاذ وصيته بدفنه بجوار جده فقام مروان بن الحكم وجميع بنى أمية ومنعوا مشيعيه، فغضب الحسين مستنكرا منع الحسن من أن يدفن إلى جوار جده، فردوا عليه "أن أخاك قال إذا خفتم الفتنة ففى مقابر المسلمين سعة..وهذه فتنة، ولمرات عديدة سكت الحسين على مضض خوف الفتنة، ما جدوى أن تخاف الفتنة بينما يسعى خصمك لإشعالها.

وفيم كان الحسين متجها إلى الكوفة بعد أن استحثه كثيرون على اللحاق بهم ليبايعوه خليفة وابلغوه أنهم جمعوا جيشا يتكون ما بين ٣٠ ألف وأربعين الفا، وكان الحسين طوال طريقه حريصا على أن يسأل من يقابلونه عن موقف الناس منه. ومن بين من سألهم الفردزق وكان من مناصريه فقال الفرزدق "قلوب الناس معك وسيوفهم مع معاوية، والله يفعل ما يشاء" أما مجمع بن عبيد

العامرى فقال له "أما اشراف مكة فقد امتلأت جيوبهم بالمال فمالوا إلى صاحب المال، وأما العامة فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك"، والحقيقة أن كثيرا من انصار يزيد كانوا جلادين يقتلون فى سبيل المال أما انصار الحسين فهم يسعون للشهادة بازلين الحياة كلها فى طريق الإيمان.. ويتوقف عباس العقاد طويلا أمام قصص كثيرة عن بغى وقتل من جانب يزيد ورجاله وعن إيمان وتعبد وشجاعة من انصار الحسين ويقول فى ختام رواياته "أنها حرب جلادين وشهداء".

وقد ظل الحسين مترددا فى مكة هل يذهب إلى الكوفة أم لا. وقد بلغه أن مسلم بن عقيل الموالى له نزل الكوفة واجتمع معه أثنا عشر الفا وقيل ثمانية عشر ثم قالوا ثلاثين ألفا أو أربعين الفا، فرأى أن يبادر بالذهاب إليهم قبل أن يتبدد شملهم. وارسل لهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابى طالب ومعه رسالة يمهد بها سبيل البيعة جاء فيها "أما بعد فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى إليكم، وقد أرسلت لكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب بأنكم اجمعتم على ما ورد فى كتب رسلكم إلى فإنى أقدم إليكم وشيكا أن شاء الله، فلعمرى ما الامام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق.. والسلام" وخرج الحسين فى الثامن من ذى الحجة متعجلا إلى الكوفة ولم ينتظر العيد.

وكان مسلم بن عقيل قد اقبل إليه ألوف من الناس إثر ألوف يبايعون الحسين بين يديه. لكن رجال يزيد لم يزالوا يتسللون إلى الناس ويتوعدونهم ويرجفون بأن يزيدا قادم فى جيش من ألوف لا حصر لها وأنه توعد بقطع العطاء وأخذ البرئ بالمذنب والغائب بالحاضر وكانوا يغدقون الأموال بلا حصر. بل كان رجال يزيد يرسلون المرأة وراء زوجها والأم وراء ابنها والاخ وراء أخيه ويتعلقون بهم ولا يتركوهم حتى يعودوا بهم، وما لبث القوم أن تفرقوا ولم يبق مع مسلم إلا خمسمائة شخص. وهو صامت ومحتمل فلما جاءت صلاة العشاء لم يكن قد تبقى حوله إلا ثلاثين شخصا واثناء الصلاة تسللوا فلم يعد فى المسجد سواه ولم يجد احدا يأخذه إلى بيت يأويه. أما وإلى يزيد بالكوفة فقد دهش من تفرق القوم وخشى أن يكون فى الأمر خدعة ومكيدة حرب وأن القوم رابضون بعيدا، فأرسل إلى الحر بن يزيد وكان مرافقا للحسين كتابا قال فيه "فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابى فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء، وفيما يفعل الحر بن زيد ذلك قال زهير بن القيم من رجال الحسين والله بعد ما رأيناه لا يكون إلا ما هو أشد منه أن قتالهم الآن يا ابن رسول الله أهون علينا من قتالهم غدا فلم لا نناجزهم الآن فأعرض الحسين عنه متمسكا بالمبادئ والقيم وقائلا "أنى اكره أبدأهم بقتال".

وبالمقابل فأن عبيد الله والى يزيد كتب إلى رجله عمر بن سعد "أما بعد فإنى لم ابعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة

والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد عنده شافعا. فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلي وأن أبو فقاتلهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون وإذا قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق وظلوم.

وكانت مأساة كربلاء.

ويبقى أن نعود إلى ما بدأنا به من كلمات العقاد فهذا القتال كله لم يكن صراعا حول عقيدة أو حول اختلاف فى الرأى والرؤية وإنما كان صراعا بين اريحية وتعسف، وبين جماعة على التى ترى منذ اليوم الأول لوفاة الرسول أنها أولى بالخلافة والإمامة ونهجت فى ذلك نهجا اسماه الباحثون بالأريحية، بينما معاوية نهج مسعى المنفعة والمصلحة، وما كان العنف فى القتال إلا واحدا من آليات العرب فى الفوز على خصومهم وهو آلية قديمة ولنقل أنها جاهلية أما نهج على وبنيه فكان نهجا لنقل أنه روحانيا وإيمانيا.

ويفسر العقاد انتصار معاوية، بأن معاوية كان قد تأثر بحضارة الشام وما جاورها خلال اقامته الطويلة فيها فكان يسعى إلى توارث السلطة فى دولة مدنية ذات اركان غير بدوية، أما على فكان قابعا حول حقه وحقوقيته وبداوته. وكان طبيعيا أن ينتصر فكر الدولة المدنية على فكر البداوة، أنها الحضارة المتوحشة إذ تنقلب على رومانسية البداوة.

وهذا مجرد رأى أو لعله مجرد تفسير.

• ثم.. محمد بن الحنفية

وبعد اغتيال الحسين جاء الدور على محمد بن الحنفية وهو ابن لعلى بن ابى طالب من زوجة أخرى غير زوجته السيدة فاطمة. وكان ابن الحنفية محاذرا ومقيما على الدوام فى المدينة، وعندما وجد الحسين متجها إلى الكوفة ملبيا دعوة مريدين قالوا أن معهم ألوفا من المبايعين له نصحه بألا يذهب وأن ارادت هذه الألوف بيعتك فلتأت إلى المدينة. لكن الحسين تعجل وكان ما كان.

وعاشت الكوفة بعدها وحتى الآن سنوات من الندم على خذلانهم للحسين.

وبقى من السلالة الطاهرة محمد بن الحنفية، وفى عام ٦٥ هجرية انتفض الأفاق "المختار الثقفى" وكان طامعا فى الحكم فإتخذ من ابن الحنفية ستارا واستثار فى أهل الكوفة حزنهم وندمهم معلنا أنه يدعو لخلافة محمد بن الحنفية، والتف حوله آلاف من هؤلاء النادمين متصورين أنها فرصتهم للخلاص مما علق بصدوره وقلوبهم من إثم التنكر لعلى وللحسين، وقامت هذه الجموع الحسنة النية بثورة عاتية على الدولة الزبيرية وعى الدولة الأموية معا وحققوا انتصارات عسكرية باهرة مشحونين بجرعة هائلة من حمية دينية. وتوالت انباء الانتصارات على أسماع محمد بن الحنفية وهو بالمدينة فارتكب ذات الخطأ الذى وقع فيه اخوه الحسين وصدق أن الحجاج الثقفى موال حقا له ومبايع حقا لخلافته فجمع اسرته ورجاله وشد رحاله إلى الكوفة. وهنا اسقط فى يد الافاق الحجاج إذ اتاه الخليفة المنتظر، لكن للتأسلم

ابوابا عدة، وفيم كان محمد بن الحنفية محاطا بجماهير من المؤيدين والمساندين، منتظرا أن يدعو الحجاج هذه الألوف لمبايعته خليفة، إذا بالحجاج يقف فى الجموع خطيبا وقال أننا نبايع ابن السلالة الظاهرة سلالة على بن ابى طالب وحفيد رسول الله محمد بن الحنفية وقد ادعى البعض أن هذا القادم ليس محمد ابن الحنفية منتهزا فرصة انه كان معتكفا فى المدينة عن مقابلة الناس، وها هو قد أتى اليوم وإذا كان للإمام المهدى دوما علامة لا تدحض فالإمام المهدى محمد بن الحنفية علامة انه إذا ضرب عنقه بالسيف انكسر السيف وبقى هو سليما معافى. وغدا سأجمعكم جميعا وأريكم علامته الطاهرة. وهنا فقط أدرك محمد بن الحنفية حقيقة الفخ الذى وقع فيه وفى جنح الظلام جمع عائلته ورجاله وتسلل هاربا إلى المدينة.

وهكذا ظل الانتساب لآل البيت والادعاء بالحكم باسمهم سلاحا للمتأسلمين فى الماضى وفى الحاضر وسيظل كذلك فى المستقبل. فداعش إختارت لأميرها اسم آبى بكر وابن لادن يقولون انه ادعى انه قرشى من سلالة الرسول، والملالى فى طهران يسومون شعبهم الظلم والقهر والجوع والفقر مدعين انهم ينتظرون المهدى القادم ليملأ الدنيا عدلا..وهكذا ظل الانتساب لآل البيت حيله متأسلمة يجب الا تخدع أحدا، فعلى وبنوه اصبحوا ضحايا ليس لسيوف المتأسلمين وانما ظلوا فى الماضى ويظلون فى الحاضر وسيظلون فى المستقبل ضحايا لاستخدام المتأسلمين المدعين للانتساب إليهم وينسبون إليهم كل ما يرتكبونه من جرائم وآثام.

(٧)
رواه الحديث

ولعل أية قراءة فى موضوع الأحاديث يتعين أن تبتدئ بما روى عن الرسول أنه قال "لا تكتبوا عنى الحديث، ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه" وقد فسر البعض هذا الحديث أن الرسول خشى أن يفتتن الكتاب والرواه بما قال فيتداخل ما قال بالقرآن. وانتظر المسلمون حتى زمن المأمون. ويقول الدارقطنى "لم يجمع الحديث إلا فى عهد المأمون وبعد أن أصبح الحديث الصحيح من الحديث الكاذب كالشعره البيضاء فى جلد الثور الأسود". وبعد أن فشت بدعة ابتداع الأحاديث واستخدام الأحاديث المصطنعة فى الصراعات السياسية، كتلك الأحاديث التى وضعها معاوية كلما أراد أن يبرر فعله من أفعاله التى لا يرضاها الإسلام. مثل "والله ما أردتها لنفسى لولا أنى سمعت رسول الله يقول يا معاوية إن حكمت فأعدل"

وأيضا "جاء جبريل إلى رسول الله وقال يا محمد استوص بمعاوية خيرا فهو أمين الله على هذه الأمة" . وإذ تمضى على وفاة الرسول تسعة وعشرين عاما ونصف صنع أحد اتباع معاوية حديثا يقول "الخلافة بعدى ثلاثون عاما وبعدها ملك عضوض" واستخدم الحديث لخداع الحسن ولفرض توارث الخلافة. وبالمقابل صك خصوم معاوية احاديثا مصنوعة. ثم تبارى فى صناعة الاحاديث اعداء الإسلام ومنهم كمثال عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء وكان يهوديا تظاهر بالإسلام وأضل المسلمين قائلا أن الرسول سيرجع مثلما رجع عيسى مستخدما تفسيرا خاطئا للآية الكريمة "أن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" وهو الذى أضل أهل مصر حتى احتشدوا فقتلوا عثمان. وعندما امسك به المسلمون ليقتلوه قال "لقد وضعت لكم أربعة آلاف حديث لن تدركوها" . وإذا كان أنس بن مالك (المتوفى ٩٠ هجرية) قال " ما أعرف شيئا مما كان على عهد الرسول" . فإننا ندرك مدى ما عاناه من جمعوا الحديث من جهد فى الاستقصاء وجهد فى تنقيتها بعد أن كان فيها ما لا يصدقه عقل. ويناقش الدكتور محمد حسين هيكل الأمر قائلا "ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاق وأسفار لجمع الحديث وتمحيصه، وما رواه من أنه جمع من الأحاديث المتداولة ما يزيد على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف بما يعنى أنه لم يصح لديه من كل مائة ألف حديث إلا حديثا واحدا (أى بنسبة ٠٦ر٪ . وأبو داود لم يصح لديه من خمسمائه ألف حديث إلا

أربعة آلاف وخمسمائة (حياة محمد). وهنا توقف الكثيرون أمام الأحاديث فكما استخدم البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم من جامعى الحديث عقولهم للاختيار فإنه مع تجدد الأزمان وتغير الأعراف ونضج العقول يجوز بالطبع للمسلم أن يعمل عقله وفق ما استجد من أعراف ومعلومات فى تدقيق الاحاديث والاختيار من بينها خاصة مع تضارب الرواه فى رواياتهم بل وتضارب ما ينسب إلى الراوى الواحد فى الموضوع الواحد وإذا كنا قد لاحظنا من قبل مدى دهاء الطبرى فى كتابه تاريخه، فهو يقول دون أن يفصح لكنه يمرر المعلومة التى يريد. وينقل الطبرى عن ابن عباس أربعة أحاديث كلها عن موضوع واحد وتختلف عن بعضها ونقرأ وندهش.

- حدثنا موسى ابن هارون الهمدانى قال حدثنا عمر بن حماد عن أسباط عن السدى عن أبى مالك عن صالح عن ابن عباس "جعل ابليس على سماء الدنيا وكان من طائفة من الملائكة يقال لها الجن وإنما سموا بالجن لأنهم خزان الجنة" (تاريخ الأمم والملوك ص٨٨).

- وأيضا حدثنا ابن حميد عن مسلمة عن المبارك بن مجاهد عن شريك عن صالح عن ابن عباس "أن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن وكان ابليس منهم وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطانا رجيما".

- ثم، حدثنا عثمان بن سعيد عن بشر بن عمارة عن ابى روق عن الضحاك عن ابن عباس "كان إبليس من حى من أحياء الملائكة قيل لهم الجن. خلقوا من نار السموم وكان اسمه الحارث، وأول من

سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء وقتلوا بعضهم بعضا فبعث الله إليهم ابليس ومن معه فى جند من الملائكة فقتلهم حيث ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل ابليس ذلك اغتر فى نفسه وقال لقد صنعت شيئا لم يصنعه أحد فإطلع الله على ذلك من قبله فعاقبه".

- وكذلك حدثنا على بن الحسن عن ابو نصر بن الخلال عن سعيد بن داود عن هشام عن عبد الرحمن بن يحيى عن سعدى بن مسعود عن ابن عباس" كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبى ابليس وكان صغيرا، وكان مع الملائكة يتعبد معهم فلما أمروا أن يسجدوا لآدم سجدوا وأبى ابليس ولذلك قال عز وجل "إلا ابليس وكان من الجن" (الكهف ٥٠).

وأيا ما كان رأى الطبرى، ولماذا أورده بهذه الصورة فإنه ما من لوم على ابن عباس الذى كان منذ طفولته لا يتخلف عن مجلس الرسول ولا عن الصلاة خلفه وكان لا يكاد يسمع آية من القرآن إلا وحفظها ولا حديثا للرسول إلا وحفظه. و كان صادقا فى روايته ومصدقا ويقول "أنى كنت اسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب الرسول" وكان على يعتمد عليه فى اقناع الخصوم لقوة حجته وذاكرته. ولا لوم هنا على عبد الله بن عباس.. لكن هؤلاء الذين أتو بعده بسنوات عديدة ساق كل منهم ما لم يكن صحيحا وأتى به الطبرى ربما ليحذرنا من أمثالهم.

والمثير للدهشة هو أن التدوين الجاد للروايات التى تحدثت عما كان فى الزمن الأول للإسلام جاء بعد حوالى مائة عام من الهجرة.

وفى زمن بلا طباعة ولا تدوين منتظم ومنظم، وبعد أن تداول الرواة حديثا منسوبا للرسول :لا تكتبوا عنى الحديث ومن كتب شيئا فليمحه" قالها الرسول حفاظا على وحدانية كتابه القرآن وحفظه، فى زمن كهذا تبدو رواية الرواية أى رواية مسألة تستحق أن نتوقف أمام مدى مصداقيتها خاصة وأن المسلمين عبر أجيال تالية وحتى الآن يتخذونها سبيلا لفهم الإسلام ومسندا يستندون إليه فى تأكيد صحة مواقفهم أو فى تكذيب خصومهم ثم يتمادى التكذيب ليصبح ما هو أفدح.

وتبدو قيمة هذه الروايات عندما يتحدث البعض عن العودة إلى ما كان فى الزمن الإسلامى الأول، تماما كما فعل الأغريق القدامى بالحديث عن العودة للعصر الذهبى الأول. ومن هنا أتت المحاولة لفحص بعض ما روى عما كان فى اليوم الفاصل فى تاريخ المسلمين وهو يوم وفاة الرسول.

وبين أيدينا طبعة قديمة عمرها مائة وخمسة وثلاثون عاما هجريا.. ونقرأ فى صدرها وسط زخارف عربية جميلة "ماشاء الله كان- الجزء الثانى من تاريخ الكامل للعلامة ابى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروفِ بابن "الأثير" الجزرى الملقب بعز الدين رحمه الله- ثم - وبهامشه التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والاخبار للوذعى العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحنفى رحمه الله تعالى عليه- ثم - الطبعة الاولى بالمطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١ هجرية".

نحن إذن أمام وثيقة تستحق التأمل فى أحرفها وهى تتحدث عما كان عقب وفاة الرسول الكريم، وتستحق الاهتمام برواياتها المختلفة والمتناقضة التى تجمعت معا حول حدث واحد. وقد كان المؤلف حريصا على غير عادة من كتبوا عن تاريخ هذه الفترة على ايرادها جميعا على اختلافها ثم حسم امره وأمرنا بأن قال "والله اعلم". ومع ذلك فأن الكثيرين انتقى كل منهم رواية واحدة مستندا إليها وحدها متجاهلا وعن عمد الروايات الأخرى.

لكن الكتاب الذى بين ايدينا استمتع كاتبه برؤية "المؤرخ" الحقيقى فلم يعمل قلمه فى الانتقاء والمفاضلة بين الروايات بل أتى بالروايات جميعا أو بالدقة أكثرها شهرة، وذلك على الرغم من أنه جاهر بولائه لعلى بن ابى طالب وظل يمنحه فى كل كتابته عن هذه الفترة وما تلاها لقب "أمير المؤمنين" دون غيره من المتصارعين حول الخلافة.

* * *

نقرأ معا نصا متكاملا ورد فى كتاب "الكامل فى التاريخ لابن الأثير" (الجزء الثانى- ص ١٥٦).

"ولما توفى رسول الله ووصل خبره إلى مكة، وعامله عليها عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية، استخفى عتاب وإرتجت مكة، وكاد أهلها يرتدون، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم، فاجتمعوا إليه، فقال: يا أهل مكة، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من إرتد، والله ليتمن الله هذا الأمر كما ذكر رسول

الله فلقد رأيته قائما مقامى هذا وحده وهو يقول : قولوا معى : لا إله إلا الله تدن لكم العرب ، وتؤد إليكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله - فمن بين مستهزئ ومصدق ، فكان ما رأيتم ، والله ليكونن الباقى . فامتنع الناس من الردة .

وقد عتب كثيرون على ابن الأثير قوله هذا عن الجزية وأموال قيصر وكسرى وكأنه يلمح إلى أن رجال مكة حافظوا على إسلامهم ورجعوا عن الردة تحت اغراء المال . ونمضى مع ابن الأثير " لما توفى رسول الله اجتمع الانصار أو بعض الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبو بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة الجراح ، فقال ما هذا فقالوا منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر منا الأمراء ومنكم الوزراء وبايع عمر ابا بكر فقال الانصار أو بعض الانصار لا نبايع إلا عليا . قال وتخلف على وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة . وقال الزبير لا أغمد سيفا حتى نبايع على فقال عمر خذوا سيفه وأضربوا به الحجر ، واتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع على بيعة أبى بكر خرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا حتى بايعه ثم استدعى ازاره ورداءه . والصحيح أن امير المؤمنين على ما بايع إلا بعد ستة أشهر والله أعلم . وقيل لما اجتمع الناس على بيعة ابى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول لعلى انى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم ابو بكر من أموركم . ما بال هذا الأمر فى اقل حى من قريش ثم قال لعلى ابن ابى طالب

أبسط يدك أُبايعك، فوالله إن شئت لاملأنها عليه خيلا ورجالا فزجره على وقال: إنّك والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة، وإنّك طالما بغيت الإسلام شرّاً، لا حاجة لنا فى نصيحتك". ويمضى ابن الأثير فى روايته وينقل عن ابن عباس ان عمرا قال فى مناسبة أخرى"كان أبو بكر خيرنا حين توفىّ رسول الله وأن عليا والزبير ومن معهما تخلفوا عنا فى بيت فاطمة وتخلف عنا الانصار واجتمع المهاجرون إلى ابى بكر، ثم قلت له انطلق بنا إلى اخواننا الانصار فانطلقنا نحوهم وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة به وجع، وقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه، وقال أما بعد فنحن الانصار كتيبة الإسلام وانتم يا معشر قريش رهط بيننا وإذا البعض منكم يريدون أن يغصبونا الأمر. وحاولت أن أرد وكنت قد زورت فى نفسى من مقالة فأمسكنى ابو بكر، وقال يا معشر الانصار انكم لا تذكرون فضلا إلا وانتم له أهل ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش فهم أوسط العرب دارا ونسبا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى وبيد ابى عبيدة بن الجراح. فقام رجل منهم وصاح "أنا جذبلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الاصوات باللغط فلما خفت الاختلاف قلت لأبى بكر ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته وبايعه الناس، ولم يعد ممكنا أن تكون أخرى بعدنا، فإما أن نتابعهم على ما لا نرضى واما أن نخالفهم فيكون فسادا".

والآن نتوقف لنتأمل ما أورده ابن الأثير من روايات متناقضة حول الخلاف على خلافة الرسول ونتأمل لنكتشف أنها على تناقضها يتبدى كل منها متقنا ومصاغا صياغة درامية محكمة ومنحها تفاصيلا توشك أن تقنع القارئ مثل "وقال الزبير لا أغمد سيفا حتى نبايع على فقال عمر خذوا سيفه واضربوا به الحجر" و"لما سمع على بيعه أبى بكر خرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا حتى بايع ابى بكر ثم استدعى رداءه وازاره" وحوار درامى آخر. "وقيل لما اجتمع الناس على بيعة ابى بكر اقبل أبو سفيان قائلا إنى لأرى عجاجه لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف فيم ابو بكر من أموركم، ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش، ثم قال لعلى ابسط يدك ابايعك فوالله أن شئت لأملأنها خيلا رجالا، فزجره على وقال والله انك ما أردت بهذا إلا الفتنة، وانك والله طالما بغيت للاسلام شرا ولا حاجة لنا فى نصحيتك".. ثم رواية أخرى تنقل عن عمر قوله "كان أبو بكر خيرنا حين توفى رسول الله وإن عليا والزبير ومن معهما تخلفوا عنا" ثم "والصحيح أن عليا ما بايع إلا بعد ستة أشهر" ثم اختتم قائلا والله أعلم.

هذه الروايات المتناقضة بقدر ما هى محبوكة فى صياغات متقنه أوردها ابن الأثير متداخلة مع بعضها البعض وكأنه يوحى للقارئ بأنها جميعا مصنوعة ثم أراح ضميره وأضاف والله أعلم.

لكن الكثيرين ممن كتبوا عن تاريخ هذا اليوم بعد عدة أجيال نقل كل منهم رواية واحدة تتفق مع مذهبه ومع موقعه من الصراعات

المحتدمة وقدمها على إنها الرواية الصحيحة ولم يشر إلى غيرها وهكذا ارتبك علم التاريخ وارتبكت معه الحقائق.. هذا إذا كان ما أورده ابن الأثير قد احتوى على حقيقة ما حدث.

اقول ذلك لنحاذر ونحن نطالع الروايات، ونحاذر فى الاستناد إليها فى تحليلات ومواقف وأن نعمل العقل فى محاولة فهمها والتعامل معها وبها.

(٨)
التفسير والتأويل وما بينهما

وإذا بدأنا بمعنى كلمة تفسير فهى كما فى القواميس "فسر" أى شرح أو أوضح أو أبان ويقال فسر الطبيب المرض أى فحص المريض وتعرف على الداء. ويستخدم التفسير كتبسيط لمعنى كلمة أو عبارة مكونة من عديد من الكلمات قد تحتاج فى تشابكها إلى إيضاح. وفى بعض الأحيان يحلو للبعض الاعتراض على مبدأ التفسير فيقولون فسّر اللغة باعتبار أن أصحاب اللسان العربى لا يحتاجون إلى من يفسر لهم الكلمات العربية، لكن الأمر ليس بهذه البساطة فالناس عادة تستخدم الكلمات استخداما إنطباعيا دون توقف لفهم المغزى الكامن فى الكلمة وثمة مثال كلاسيكى قديم هو "النقود" فنحن نستخدم هذه الأوراق الملونة تلوينا متقنا يحاول أن يستعصى على التزوير، ونشترى بها ما نشاء ونبيع ما نشاء دون توقف ولو

للحظة واحدة لفحص المغزى الكامن فى هذه الوريقات والذى يمنحها قيمتها كأداة للتداول السلعى وماذا يجعلها وهى بذاتها مجرد قطعة ورق صغيرة تمتلك القدرة على أن تكون ثمنا لأشياء قد تكون ثمينة وأنفق فى صناعتها أو صياغتها أو استكشافها مئات من ساعات العمل، وهكذا نكتشف أن الاستخدام المستمر لكلمة "نقود" ولورقة "نقود" قد أطفأ بمضى المدة ومن كثرة الاستعمال إمكانية فهم المعنى الكامن فى هذه الكلمة، وحتى الذين يريدون التعرف على المعنى معرفة دقيقة فيلجأون إلى القواميس فإنهم قد يلتقطون معنى غير دقيق، ناسين أن القاموس كلمات وأن الكلمات تفهم وتدرك وتقال ويجرى تداولها وفقا لمعنى سائد وفهم سائد أو حتى عرف سائد وقد يكون خاطئا فيصبح على ما به من خطأ رمزا لصحيح غير صحيح، فمثلا نجد فى القواميس تعريفا لكلمة "عِرفَ" يقول عرف أى علم وهذا خطأ فادح فمعرفة الشىء لا تعنى العلم به فأنت إذ تعرف السيارة تعرف شكلها، لونها، ماركتها، سرعتها، أما العلم بها فيعنى العلم بميكانيكا آلات الدفع فيها وتركيب مختلف أجزائها أنه شىء آخر تماما.

وحتى فى القواميس الشهيرة مثل "اكسفورد" و"لاروس" نجد تفسيرات من هذا القبيل تستهدف تقريب فهم الكلمات وليس التدقيق فى معناها الدقيق مثل تفسير كلمة Deplore بأنها تعنى Condemn والفارق كبير بين المعنيين فأحدهما قد يعنى باللغة العربية يستهجن والآخر يعنى يدين. وتمتلىء اللغة العربية

بالمتشابهات وهذا هو سر ثرائها وانطلاق شعرائها وقدرتهم على إبداعات وتركيبات لغوية تمتلئ كل يوم بما يشبه الابتكار.. ورغم ما يزعمه شعراء من شكوى بأن كل شيء وكل تشبيه قد قيل "هل غادر الشعراء من متر دم" فإن الثراء اللغوى لم يزل قادراً على الإبداع.

ويزيد اللغويون العرب الأمر تعقيداً فيرفعون شعاراً تحذيريا يقرر "لا مترادفات فى اللغة" وإذا كان المواطن العادى الذى نخاطبه بالتأويل أو التفسير لا يتوقف بحثا عن الفارق بين "البيت" و"المنزل" أو بين "السيف" و"الصارم" و"بيض الهند" و"المهند" وعشرات أخرى من الابداعات اللغوية وإذا كانت اللغة تقول "الأسد" "الضيغم" "ملك الغاب" "الهزبر"، أو تقول "حوار" و"جدل" و"نقاش" و"مداولة" فإن هؤلاء اللغويين يجبروننا على البحث عن الفارق فى المعنى بين هذه المترادفات، وهكذا فإن العربى القديم ما كان يتلقى الكلمات بالبساطة التى نتلقاها نحن بها وما كانت الكلمات تلقى إليه بهذه البساطة أيضا وإنما بمعان كامنة فى كلمات تستحق إعادة استخدامها بعد التأمل فيها، والبحث عما تحتويه فى عمقها من معنى غير ظاهر، وكم فى الشعر العربى من استخدامات ملتبسة أو تداعب أحرفها بعضها البعض فمثلا نتأمل المقاربات اللفظية بكلمات مختلفة المعنى مثل:

ودارهم ما دمت فى دارهم (ودارهم الأولى من المداره، والثانية من الدار)

وحيهم ما دمت فى حيهم (والأولى من التحية، والثانية الناحية)

وأحسن العشرة مع بعضهم

يعينك البعض على كلهم

وحتى فى الكوارث تلاعب الشعراء باللفظ إرضاء للحاكم، فإذ وقع زلزال دمر الكثير من مصر صاح شاعر منافق:

ما زلزلت مصر من كرب ألم بها

لكنها رقصت من فرط عدلكم طربا

مثلما قال منافق آخر للحاكم

لم يبق للظلم فى عهدكم أثر

إلا الدى فى عيون الغيد من حور

وإذا جئنا إلى عمر الخيام نجد الاستخدام المراوغ والأكثر جمالا انهض

فالشمس التى طوقت بالنجوم

بعيداً عن حقول الليل

قد أطاحت بالليل من السماء

فلنخترق قلعة السلطان

برماح من الضوء

بمثل هذه الاستخدامات اللغوية ولمثلها نزل القرآن الكريم بما هو أرقى مستحقا أن نستوعب كيفية تفسيره وكيفية تأويله.

* * *

وهكذا فإن تفسير القرآن وتأويله يتطلبان فهما لغويا واسعا وقدرة متسعة لفهم المفردات والعبارات وما هو كامن فيها وإذا كان ابن خلدون قد زعم فى مقدمته "أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغاتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه" (مقدمة ابن خلدون ص٢١٦) وإذا كان البعض استند إلى قول كهذا وفهم مماثل فرفض التأويل واعتبره هرطقه بل وأحيانا كفرا بواحا واستحق القائل به الذبح كما سنرى، فإن ثمة فهما آخر يؤكد العكس ونقرأ لأحمد أمين "أن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم يفهمونه فى مفرداته وتراكيبه" ويمضى قائلا "وحتى فى أية لغة وأى زمان لا يتطلب فهم أى كتاب مجرد معرفة اللغة وحدها وإنما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب فى رقيه، كذلك كان شأن العرب امام القرآن، فلم يكونوا كلهم يفهمونه بإجمالات وتفصيلات وأنما كانوا يختلفون فى مقدار فهمه حسب رقيهم العقلى" (احمد امين- فجر الإسلام - ص ٢٤٩) وخلال المحاجات والمجادلات تتضح حقائق ونوافذ تطل منها على ما كان، ومنها :

- نزل القرآن على رسول الله فى نحو عشرين سنة وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال.

- نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب العرب فى كلامهم فألفاظه عربية إلا قليل منها جرى تعريبها وهضمها وأجروا عليها قوانينهم اللغوية. وأساليب القرآن هى أساليب العرب فى كلامهم

ففيه الحقيقة والمجاز والكناية والجناس إلخ، وهكذا أتى القرآن على أساليب العرب وواقع استخداماتهم اللغوية لأنه أتى يدعو العرب إلى الإسلام فكان لابد أن يأتى بلغة يفهمونها "وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه يبين لهم" (سورة ابراهيم٤ /).

– ومع هذا فلم يكن القرآن بأكمله فى متناول فهم الصحابة جميعا، ولم يكن كثيرين منهم يفهمونه بإجماله فور سماعهم له، بل كانوا يختلفون فى فهمه وتفسيره حسب قدرتهم العقلية والإيمانية. ويروى أنس بن مالك أن رجلا أتى عمرا سائلا عن الآية "وفاكهة وآبا" (عبس٣١ /) وقال ما هو "الآب"؟ فقال ابن الخطاب "لا أعرف" ثم أضاف" نهينا عن التفيقه" وروى عنه ايضا انه إذ كان على المنبر وقرأ الآية "أو يأخذهم على تخوف" فسأله أحد الجالسين "ما هو التخوف" وفيما يحاول عمر البحث عن اجابة قال رجل من هذيل "التخوف عندنا هو التنقص.. وإذا كان ابن الخطاب هو من هو فما بالنا بغيره من الصحابة ثم من التابعين. ويروى عنه ايضا أنه قال لسعد بن ابى وقاص اتعلم يا سعد لماذا خرجت على الناس شاهرا سيفى عندما قالوا أن رسول الله قد مات؟ وأكمل لأنى قرأت الآية الكريمة "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" فظننت أن الرسول سيبقى حيا حتى يشهد علينا يوم القيامة.

– ويقول الاستاذ احمد امين ان المسألة قد تأتى فى القرآن بألفاظ واضحة تماما وإنما تحتاج إلى فهم للكامن الغامض فيها ويضرب

مثالا بالآية "والفجر وليال عشر" فما هو المقصود بالليالى العشر؟ وما هو المقصود بليلة القدر، فيكون التأويل.

- ولكننا نتوقف أمام آية قرآنية أثارت جدلا ولم تزل تثيره حتى الآن صاخبا يصل إلى حد التراشق بالتكفير ففى سورة آل عمران نقرأ "وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا" (آل عمران٧ /).

فالكلمات واضحة والاحرف واضحة فى مواضعها والعبارات تتبدى هى ايضا واضحة ولكن الجدل لم يزل مستمرا، فالبعض يضع نقطة نهاية الجملة بعد كلمة "الله" فتتبدى وكأن التأويل لا يعلمه البشر فالله وحده العليم به. والكثيرون ينظرون إلى (و) على أنها "واو" العطف قبل "الراسخون فى العلم" بمعنى أن الذين يعلمون التأويل هم سبحانه تعالى" وأيضا "الراسخون فى العلم".

ولم يكن شائعا فى عهد الرسول حفظ القرآن جميعه، بل كانوا يحفظون "السورة" أو بعض أيات منها، ويتفهمون معانيها على قدر فهمهم ثم ينتقلون لغيرها- ويقول الرواة أن ابن عمر "اقام على حفظ سورة البقرة ثماني سنوات وكان يحفظ العدد من الآيات ولا ينتقل منها إلا بعد أن يتفهم معانيها".

- لكن النص القرآنى قد يأتى من باب الاعجاز غامضا مثل بداية بعض السور بأحرف متفرقة وبلا رباط يأتى بمعنى ، مثل "أ.ل.م" ومثل "ك. هـ.ى.ع.ص". أو ذكر لأسماء كائنات غير معلومة أو موجودة أيضا مثل "يأجوج ومأجوج" فتكون مثارا لتفسيرات سنرى

بعضا منها فيما بعد وهو أمر فتح الباب أمام تفسيرات متجاوزة حدود العقل وتأويلات قد تذهب بالعقل ذاته. وما كان أجدر بالجميع أن يلتزموا كما التزم عمر بن الخطاب وهو من هو وقال "لا أدرى" ثم قال نهينا عن التفيقه" لكن البعض تفيقه فإبتدع فقها خاليا من الفهم العقلانى والمعقول، دون أن يلتزم بالنهى عن التفيقه ولا بقول واضح وصريح وحاسم لعلى بن ابى طالب "القرآن بين دفتى الكتاب لا ينطق وهو مكتوب وإنما ينطق به البشر وهو حمال أوجه" و"حمال أوجه هذه" فتحت بابى التفسير والتأويل ومعهما باب الاختلاف فى الفهم وهو ما يحمل المسلمون حملا إلى تقبل مختلف التفسيرات والتأويلات باعتبارها آراء لا تكفر صاحبها طالما لم تجاوز شرع الله.

لكن التطرف والتشدد ومعاداة العقل والاكتفاء بالنقل خلق عقبات أمام التأويل ووصل الأمر إلى تحريمه بل وتجريمه فأبن تيمية مثلا كتب كتابا عنوانه "درء تعارض العقل والنقل" مؤكدا أن العقل هو إعمال الشريعة وأن التراث هو ما يتعين النقل عنه.

كما واجه ابن رشد خلال معركته سعيا للتأويل واعتباره ضرورة شرعية لمنع تعارض العقل والعلم ومستحدثات المعارف مع النص القرآنى وضعا بالغ الصعوبة حيث ساد على زمانه الفقه المالكى الذى يستند إلى مفهوم "الاجماع" ومن ثم فقد رأى المالكية انه يمتنع على المسلم الخروج على الاجماع وإلا اعتبر كافرا. وتساءل ابن رشد وماذا لو كان للنص معنى باطن مغاير للمعنى الظاهر، فهنا يكون

التأويل ضروريا وقد تتعدد التأويلات وقد لا تتوافق مع "الاجماع" كما أن فقهاء المسلمين تفرقوا فى الامصار وتوالت اجيالهم بحيث اصبح من المستحيل تحقيق معرفة فعلية بالاجماع وخاصة مع توالى الاجيال فلجأ ابن رشد إلى مخرج قرآنى فى الآية "وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم" . وهنا ثار سؤال آخر عن من هم بالتحديد الراسخون فى العلم . . خاصة وأن ابن رشد تلافيا للاتهام الذى ظل يلاحقه حتى آخر أيام حياته قال - وربما عكس اعتقاده الحقيقى - أن السماح بالتأويل للعامة يشيع الفساد .

ألم نقل منذ البداية أن أمر التفسير والتأويل صعب ومعقد بل هو شديد التعقيد ؟

وإذ نواصل الحديث عن التفسير والتأويل نكتشف أن كلمة تفسير لم ترد فى القرآن إلا مرة واحدة ، بينما وردت كلمة تأويل عشر مرات . وتأتى الصعوبة فى هذا وذاك من اختلاط المعنى المقصود با لكلمة . . فأول كتاب فى تفسير القرآن ككتاب جامع للتفسير هو كتاب محمد بن جرير الطبرى . لكن الطبرى على علمه واجتهاده اسمى كتابه "جامع البيان عن تأويل آى القرآن" كذلك نجد جلال الدين السيوطى (القرن التاسع الهجرى) يقدم التفسير مرتبطا بالتأويل على أساس أن التفسير هو شرح معانى المفردات ثم يلحق به التأويل محاولا استنباط دلالة العبارات وتركيبها بما تتضمنه من معان كامنة لا يمكن استنباط الكامن فيها إلا عبر استخدام المجاز: فالتأويل ليس مجرد شرح للفظ وإنما استنباط الدلالة الحقيقية

الكامنة فى اللفظ. يقول "الثعلبى التفسير بيان وضع اللفظ، والتأويل تفسير باطن اللفظ". ولتبسيط الأمر يقول نصر حامد أبو زيد "أن التفسير يشبه ترجمة اللفظ بصورة أبسط حتى يمكن فهمه ومن ثم يكون بعد ذلك مدخلا للتأويل".

ويأتى ذلك كله اجتهادات شخصية متعددة وكل منها على قدر فهم صاحبه، فتأتى مختلفة وقد تأتى متضاربة، بل ومتناقضة ولهذا حرص الكثيرون فى الماضى على الانتهاء من تفسيرهم أو تأويلهم قائلين (والله اعلم) وهى عبارة اختفت بترفع اصحاب الكتابات الحديثة. ولهذا حذرنا ابن رشد مؤكدا "أنه لا تكفير مع التأويل طالما التزم التأويل الاساس الشرعى" وبهذا فتح باب الاجتهاد واسعا، ولكن البعض وهم كثيرون ووافدون عبر اجيال عديدة أساء استخدام التفسير والتأويل وتحولوا إلى اصطناع معلومات ملفقة ولا تتفق مع عقل عاقل، وأمعن البعض فى إختراع حكايات وقصص وتفسيرات لا تمتلك أية ذرة من عقل، بل تفسد العقل العربى والإسلامى وتفتح أبوابه ونوافذه لقبول الخرافة.

وليأذن لى القارى أن اقتبس له بعضا من التفسيرات التى قال بها المفسرون واضحت للاسف مقبولة من المسلمين وكأنها جزء من العقيدة فقد أورد الاستاذ محمود الشرقاوى (الهلال- نوفمبر ١٩٦٧- مقال محنة الفكر التقدمى) بعضا منها، وإذ نرى كيف فسر البعض "فلك" نوح عليه السلام وكيف بناه، نجده يقول: "أن نوحا عليه السلام بنى سفينته من عظام حيوان يبلغ طوله ما بين

السماء والأرض ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل" وبماذا فسروا "يأجوج ومأجوج" قال أحدهم وصدقه كثيرون "إن يأجوج ومأجوج أمة، وكل أمة اربعمائه أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح، وهم من ولد ادم يسيرون فى خراب الارض، وهم ثلاثة اصناف": صنف مثل شجر الارز، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة ذراع، وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم يفرش إحدى اذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم فى خراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبريا، ومنهم من تنبت لهم مخالب فى اظفارهم وأضراسهم كأضراس السباع".

ويتساءل الاستاذ محمود الشرقاوى "أى شقاء فكرى وروحى يجده دعاة التقدمية الفكرية فى عالمنا العربى عندما يقرأون ذلك فى كتب للتفسير لم تزل تطبع وتوزع بوفرة كاسحة. ثم يعود ليقرأ لنا كتبا تروج للخرافة التى يصدقها الناس ويتداولونها فتصبح جزءا من مكونهم الدينى والاعتقادى.

مثل "وكان الشيخ يسير فى الهواء والشمس تسلم عليه، وأنه وهو فى المهد رضيع منع نفسه عن ثدى امه فى رمضان، وأن أهل بغداد رأوه رأى العين يقف على ماء دجلة والاسماك تجئ فوجا بعد فوج فتسلم عليه وتقبل يديه ورجليه" وأن شخصا لم يصدق ذلك فطار نعل الشيخ وظل يضربه على رأسه حتى نفق. وفوق ذلك نقرأ؛

أن الشيخ قد تشفع عند الله فى مريد له ليغفر له ذنبا عظيما فلم يقبل الله شفاعته "فكف الشيخ عن تصريف أمور الكونية ومراسم الغوثية حتى قبل الله شفاعته وغفر عن مريده" .. وصدقه كثيرون دون أن يعلم أحدهم ما معنى أمور الكونية ومراسم الغوثية، ويعلق الشرقاوى "أن من يقرأون هذا اللون من الثقافة ويحرصون عليه سيقوم فى عقولهم منه سد منيع يحول بينهم وبين الفكر والعقل وسيكون منهم جيش الظلام الآتى والذى سيطمس ضوء الفكر التقدمى" .

أما وقد أتى جيش الظلام فإننا نكتشف أن كثيرا من هذه الخرافات مازالت رائجة ومؤثرة فى العقول. فشكرى مصطفى (أمير التكفير والهجرة) تحدث طويلا عن علامات قيام الساعة ناقلا عن المفسرين علامات لم ترد فى قرآن ولا فى سنة صحيحة ومنها علامات مثل " خراب بيت المقدس- جفاف بحيرة طبريا- نخل بيسان لا يثمر- قيام الملحمة وظهور المسيخ الدجال.. بل هو يقدم وصفا لهذا المسيخ، ويقول أن "ناره جنة وجنته نار- وهو لعنة الله أعور عينه اليسرى" .. وهكذا خرافات فى خرافات يمتد بها شكرى مصطفى إلى أن الاحجار ستحارب معه "يوم يقول الحجر تعالى يا مؤمن هاك رومى يختبئ خلفى فتذهب إليه لتجده قد ارتفع ودك رأس الرومى" وبمثل هذه الخرافات قاد شكرى جماعته إلى الهلاك. وفى ميدان رابعة اتخذت خرافات الإخوان طابع الاحلام التى يراها واحد من شيوخهم فالرسول ينام على حجر الشيخ ويطلب من مرسى أن

يؤمه فى الصلاة "ويهلل المحتشدون ومنهم مثقفون كبار مصدقين وواثقين من النصر. وقد كانت الاحلام التى يراها شيخ من شيوخهم سلاحا دائما، وأنا شاهد شخصيا على ما كان فى سجن جناح بالواحات، وكان مجموعة من خيام نصفها للإخوان احاطوه بسلوك شائكة ومنعوا عنها أى غرباء وفى فجر ذات يوم تعالت الهتافات والتكبيرات فى فرح زائد وعلمنا أن قيادة الجماعة وقد شهدت تمردا فى صفوف البعض من طول الاعتقال وانسداد أبواب الأمل فبدأت فكرة "مهادنة" عبد الناصر والتصالح معه. ولمنح المحبوسين بارقة أمل تقول بقرب سقوط حكم عبد الناصرل خرج الشيخ شريت مفسر "أحلام الجماعة" (وهذا منصب رفيع) معلنا أنه رأى رؤية فيها عجل على رأسه تاج ذهبى ويجلس على عرش ذهبى وإذا بالتاج يقع والكرسى ينكسر. وتعالت الهتافات بالبشرى القريبة المنال. وكان ردعبد الناصر ذكيا فأرسل هليوكوبتر فى اليوم التالى مباشرة وبها الضابط المخيف للإخوان والذى مارس ضدهم تعذيبا وحشيا اللواء إسماعيل همت.. سار همت حتى خيمة الشيخ شريت الذى كان مرتجفا من الهلع وقال له ببساطة "سيادة الرئيس بيقولك ابقى اتغطى كويس وأنت نايم" ثم غادر فورا. وانطفأت بهجة الرؤية الكاذبة.

.. واللوم يقع دوما على عاتق القائمين بتفسير ما لا يفهمون، وما لا يمكن تفسيره نصيا وإنما ينبغى تأويل النص.

وبالإضافة إلى ذلك كان اللجوء إلى الحكايات التى ألفها

أصحابها وهو ما يمكن تسميته بالفقه المخترع والتى أدت إلى ما شاهدناه من انفعالات وافتعالات الفقه الخرافى وكلها أتت من بابى التفسير والتأويل. وأتى منها ايضا تملق السلطان فى تفسيرات وتأويلات تأتى على هواه وتعزز من سلطانه.

ولكن وقبل أن نأتى إلى ذلك نتوقف أمام ما يمكن تسميته بمساندة السلطان عبر تقديم ما يمكن القول أنه "ايديولوجية" تقديم العزاء للمواطن المسلم فى الخلاص من الواقع المعاش ومواجهته هو وتسلطه وظلمه بالتصوف المتعالى على الواقع.

وهنا نتحدث قليلا عن الغزالى الذى قال عنه ابن رشد فى كتابه "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال- ص ٨٤) أنه لم يلتزم مذهبا من المذاهب فيما يكتبه، بل هو مع الاشعرية اشعرى ومع الصوفية صوفى" والحقيقة أن الغزالى هو سؤسس مذهب "التصوف السنى" الذى يختلف بل ويتضاد مع "التصوف الفلسفى". والذى تحدث عنه "نصر حامد أبو زيد" مطولا مؤكدا أن خطاب الغزالى هو الخطاب المهيمن والسائد منذ القرن الخامس الهجرى وحتى الآن. والغزالى هو حجة الإسلام وهو لقب لم يحظ به غيره. وكتابه" إحياء علوم الدين" هو الكتاب الثانى بعد القرآن بالنسبة لكثير من المجتمعات الإسلامية، كما يظهر ذلك من كثرة الشروح والطبعات المختلفة والعديدة، بل والترجمات إلى كثير من اللغات. وقد أسس الغزالى ما أصبح يعرف باسم "الوسطية" فى الفكر الدينى، وهى الوسطية التى تماهت مع الإسلام نفسه فى

شعار "الإسلام دين الوسطية" واعتبر قوله تعالى " وكذلك جعلناكم أمه وسطا" (البقرة١٢٣ /) تلخيصا لأفكار الغزالى، وبعبارة أخرى صارت كلمة "وسطا" تعنى"الوسطية" الفكرية" (د. نصر حامد أبو زيد- الخطاب والتأويل ص ٢٨).

وهكذا فليس كل تفسير صحيح أو خال من الغرض وكذلك التأويل. فقد قادنا "التأويل" المفتعل إلى مذاهب فى التصوف وصلت إلى ما اسمى "بالحلولية" متمثلة فى تصوف الحلاج الذى تعنى ذوبان العاشق (هو) مع المعشوق (الله) أى ذوبان الذات (هو) مع الموضوع (الذات الألهية) فى حالة وجود واحدة فأشار إلى جبه يرتديها قائلا "ما فى هذه الجبة إلا الله" وصاح شعرا:

أنا من أهوى ومن اهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا ابصرتنى أبصرته
وإذا ابصرته ابصرتنا

وهو ذات النهج الذى عبرت عنه رابعة العدوية :

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا

أنها بوابة الهروب الأبدى من مواجهة الواقع وإراحة الحاكم مهما تبدى ظلمه وتمادى طغيانه من اية معارضة فهؤلاء يروجون لما وصفه الغزالى نفسه فى "مشكاة الأنوار" قائلا "أنهم بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على انهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق، لكن

منهم من كان له فى هذا الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيا وإنتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم لا لذكر غير الله ولا لذكر انفسهم، فلم يكن عندهم إلا الله سكرا سيطر على عقولهم فقال أحدهم "أنا الحق" وقال الآخر "سبحانى ما اعظم شأنى" وقال آخر "وما فى هذه الجبه إلا الله" وكلام العشاق فى حالة السكر يطوى ولا يحكى" (ص ٥٥). والحقيقة أن الخطر فى مثل هذه التهويمات التى تفاقمت عبر محاولات للتفسير والتأويل يكمن فى أنها جعلت التأويل ذاتيا وحاول "الصوفى" أن يقدم نفسه كجزء متداخل ومندمج فى "الأعلى" فينساق خلفه آلاف من الاتباع، ينساقون بعيدا عن واقعهم وعن وجوب مواجهة ما هم فيه من بؤس وظلم وفقر إلى التسامى المفتعل وربما غير الموجود واقعيا وإنما هو صنعه وحيله لاجتذاب الاتباع.. فيكون الأمر كله استخدام للتأويل ومحاولة شرح مكنون الآيات القرآنية وتفسيرها لخلق خيمة دينية المذاق تستبعد الشيخ وأتباعه من معادلة المواجهة مع الظلم وهى مواجهة يأمر بها الإسلام فى جوهره الحقيقى.

وهكذا فإن التفسير والتأويل قد تم استخدامهما على الوجهين وجه ينفتح بالإنسان على فهم تجديد للدين ينطلق به وبمجتمعه إلى عالم افضل اكثر عدلا وأكثر تقدما وأكثر استخداما للعقل والعلم.. أو وجه رأيناه فى انفتاح على عالم هيولى يجرى - فى بعض الاحيان- استخدامه للتحليق بعيدا عن الواقع بزعم الاقتراب من

"الذات الالهية" ومن ثم الانطواء على الذات ابتعادا عن آية مواجهة للحاكم أو للظلم.

ومع ذلك فقد ظل الكثير من رجال الفقه يطاردون الصوفية ويحرضون عليهم الحكام بزعم كفرهم كما فعلوا مع السهروردى إذ أغروا الناصر الايوبى بقتله. وكما فعلوا مع محيى الدين بن عربى حال وجوده فى مصر فحاولوا قتله لولا أن ساعده الشيخ البجانى على الهرب. وكما فعلوا بالحلاج إذ دسوا له السم فعلوا مع عبد الحق بن سبعين فدسوا له السم بتحريض من الملك المظفر (ملك اليمن). ولعل سر العداء للصوفية هو قدرتهم على تقديم تأويل مترابط وروحانى قادر على اقناع العامة. ومن نماذج هذا الإغراء المترابط ما جاء فى كتاب أخبار الحلاج "قال عبدا لله بن طاهر الأزدى كنت أخاصم يهوديا فى سوق بغداد وقلت له يا كلب فمر بى الحسين بن منصور ونظر إلى شذرا وقال "لا تنبح كلبك". ومضى سريعا فذهبت إليه معتذرا فقال لى "يا بنى إن الاديان كلها لله عز وجل. شغل بكل دين طائفة لا اختيارا فيهم بل اختيارا عليهم. فمن لام أحدا ببطلان ما هو عليه فقد حكم انه اختار ذلك لنفسه، وهذا مذهب القدرية، والقدرية مجوس هذه الأمة، واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الاديان هى ألقاب مختلفة وأسام متغيرة والمقصود منها لا يختلف ولا يتغير".

فكيف يقبل المغلقى القلوب والعقول هذه المساواة الصوفية بين ابناء الديانات المختلفة؟

ولكى نتعرف على أمر التفسير يتعين أن نتأمل مكانه ومكانته فى فهم ما يحتاجه المسلم من فهم، ونبدأ من البداية وهى مصادر التفسير، ويقول المسلمون الأوائل عن مصادره.

- التفسير بالمنقول: وهو إن ينقل عن الرسول أو ما روى عنه، فقد نقل عنه (صلعم) أن الصلاة "الوسطى" هى صلاة العصر، ويروى عن على بن ابى طالب "سألت رسول الله عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر".

لكن المعاناة الحقيقية تأتى ممن أسماهم الباحثون الأوائل "الوضاعين" وهذا التعبير يعنى هؤلاء الذين يأتون بتفسير من عندهم ثم لكى يفرضوه على المسلمين ينسبونه إلى الرسول، ويتضح الأمر عندما تجد للآية الواحدة أكثر من تفسير بما يقطع بأنها تفاسير مغشوشة مثل ما روى عن أنس بن مالك أن رسول الله سئل عما هى "القناطير المقنطرة من الذهب والفضة" (آل عمران١٤ /) فقال "القنطار ألف أوقية"، بينما روى عن أبى هريرة انه أجاب القنطار أثنا عشر ألف أوقية. والأغلب أن لا أنس ولا أبو هريرة فعلاها وأنما نسبها الوضاعون إليهما لإلباس الباطل ثيابا يصدقها الناس.

- التفسير بالاجتهاد فى الرأى: وهو أمر يتطلب من المفسر معرفة بكلام العرب وأساليبهم فى القول وما قد يأتى من ألفاظ ومعان من مختلف الانحاء وأن يتعرف خاصة على ما ورد بمثلها فى الشعر الجاهلى والامثال والأقوال المأثورة وأن يعرف بالإضافة إلى ذلك أسباب نزول الآية ومناسبة نزولها.

وقد اختلف المفسرون الأوائل مثل ما كان من خلاف بين ابن مسعود وابن عباس وهما اكثر المجتهدين الأوائل تفسيرا. ومن خلافهما على سبيل المثال تفسير الآية "وأخذنا عنكم ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور" (البقرة ٦٤/) فقال الأول أن الطور هو الجبل مطلقا، بينما قال ابن عباس هو جبل بعينه، وقال ثالث هو ما نبت فيه زرع من الجبال وما ليس فيه زرع فليس بطور.. ومثل هذا الاختلاف محتمل فهو اختلاف رأى وليس اختلاف مدلول.

وكان بعض الصحابة يرفضون اقحام انفسهم فى التفسير وقد روى عن سعيد بن المسيب انه كان إذا سئل عن شيء من القرآن أجاب "لا أقول فى القرآن شيئا". وسئل ابن سيرين فقال "إتق الله عليك بالسداد فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن". وعن هشام بن عروة بن الزبير "ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله".

كذلك رفض الكثير من الفقهاء أن يعتنق رجل مذهبا من المذاهب الدينية كالمعتزلة والمرجئة والشيعة والمجسده فيجعل مذهبه أصلا يفسر القرآن على أساسه، مؤكدين ان الواجب هو أن تكون العقيدة تابعة للقرآن لا أن يكون القرآن تابعا للعقيدة. ورغم ذلك فقد قام كثيرون من أصحاب كل مذهب بتفسيرات تستند إلى مذهبهم بما جعل الأمر ملتبسا أمام المسلم العادى.

ومن المشكلات الأكثر تعقيدا ما اسمى "الاستقصاء" وهو الإلحاح فى استقصاء المعلومات المترتبة أو الملازمة للتفسير فمثلا إذا

سمعوا قصة أهل الكهف وكلبهم سألوه ماذا كان لون الكلب، وسألوا ما شكل سفينة نوح وما اسم الغلام الذى قتله العبد الصالح فى قصة موسى، وإذا تلى عليهم "فخذ أربعة من الطير" (البقرة ٢٦٠ /) سألوا بإلحاح ما أنواع هذا الطير.

والمثير للدهشة انهم وجدوا من يخترع لهم اسماء وأوصافا وروايات ما أنزل الله بها من سلطان، كما تحدث عن هاجوج وماجوج ومن وصف سفينة نوح وكيف أنها بنيت من عظام حيوان طوله ما بين السماء والأرض وعرضه مسيرة عام كامل وهو الأمر الذى فسره ابن خلدون فى مقدمته قائلا "أن العرب لم يكونوا أهل كتابه ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية فامتلأت التفسيرات بالمنقولات من التوراة وبما تخيلوه هم وتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات . ويروى ابن عبد الحكم "سمعت الشافعى يقول "لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث (السيوطى- الاتقان فى علوم القرآن- جزء ٢- ٢٢٥) فإذا صح ذلك علمنا مقدار ما دسه الوضاعون ونسبوه إلى المفسرين الأوائل ومدى جرأتهم على الاختلاف.

ولعل خير دليل على ذلك هو ما أوردنا سابقا من أربعة تفسيرات لكلمة "الجن" كل منها مختلف عن الآخر، ورغم هذا القول فإن ما نسب إلى ابن عباس من تأويلات كثير وبغير حصر ولعل أشهر نموذج لتأويلاته هو ما تعلق بالآية "انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها" فقال "والماء هو القرآن والأودية قلوب العباد" ولكن

لابد لنا من أن نعود إلى ذكر الوضاعين، وقد اشتهر من هؤلاء الوضاعين ابن عكرمة الذى كان يجيب على أى شيء ويوحى بأنه يعرف كل اجابة لأى سؤال إلى درجة أن رجلا سأل سعيدا بن المسيب عن معنى آية من القرآن فقال له لا تسألنى بل اسأل من يزعم انه لا يخفى عليه شيء.

وفى عصر التابعين تضخم التفسير وامتلأ بالإسرائيليات لكثرة من دخل منهم فى الإسلام عن ايمان حقيقى أو إيمان مغشوش ولإندفاع الناس طلباً لسماع التفاصيل.. وقد كان اغلبها مغشوشا. ومن هؤلاء عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج. ويقول عنه الذهبى فى تذكرة الحفاظ "وهو من أصل رومى ونصرانى الأصل (ولد سنة ٨٠هـ وتوفى ١٥٠هـ) ويقولون عنه انه اكثر من وضع الاحاديث وتفسيراتها".

ولعل ذلك هو ما دفع البعض إلى رفض مبدأ التفسير من أساسه، وقد روى ان الإمام احمد "ثلاثة ليس لها اصل التفسير والملاحم والمغازى".

ويبقى أن نشير إلى قول بالغ الأهمية للاستاذ احمد أمين "ويظهر من تفسير القرآن أن عملية التفسير كانت فى كل عصر من العصور متأثرة بالحركة العلمية وتنعكس فيها ما فى العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية حتى أنك إذا جمعت التفاسير التى القيت فى عصر من العصور تبينت منها مقدار الحركة العلمية وأى الآراء كان سائدا أو شائعا" (فجر الإسلام- ص٢٥٨).

.. لكن تداخل الوضاعين واختلافات المفسرين لا تعنى أن الناس يستغنون عن حاجتهم فى كل عصر وزمان وقطر إلى تفسيرات عاقلة ومتمشية مع روح الزمان والمكان وأن اختلفت فيما بينها فهذا هو السبيل إلى فهم القرآن وأصول شريعته فهما صحيحا وعصريا وعقلانيا بما يسد الطريق أمام تنطع الغلاة ودعاة الدين المغشوش امتدادا من حسن البنا وسيد قطب إلى الظواهرى والبغدادى.

- وإذ تحدثنا عن التفسير نأتى إلى "التأويل". وأول من قال بالتأويل هو الجعد بن درهم فقد أنكر ما قيل عن الصفات الإلهية، إذ قال أن القرآن مخلوق ، ثم قام بتأويل بعض ما ورد فى القرآن مؤكدا أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولا إتخذ من إبراهيم خليلا. وكان ابن درهم مقيما بالكوفة، ووالى الكوفة فى ذلك الوقت خالد بن عبد الله القسرى ووقف على المنبر فى صلاة عيد الأضحى واختتم خطبته قائلا: انصرفوا ايها المسلمون تقبل الله ضحاياكم أما أنا فإنى أريد اليوم أن أضحى بالجعد بن درهم ثم نزل من المنبر وكان قد اجلس الجعد إلى جواره فذبحه اسفل المنبر (إبن نباته المصرى- سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون - ص١٨٦) وتعليقا على ذبح ابن درهم قال ابن كثير "ومن بعدها حرص كل من قال بالتأويل على أن يضيف إلى تأويله عبارة "بما لا يخالف شرع الله". (تاريخ ابن كثير- الجزء ٩-ص٣٥٠).

- وقد تحامل عديد من الفقهاء على مبدأ "التأويل" فإبن تيمية يقول رفضا للتأويل "أن صحيح المنقول يتفق مع صريح المعقول وهو

" يرفض حتى التأويل المستند إلى منطق واضح فيقول "أن المنطق لا يحتاج إليه الذكى ولا ينتفع به البليد" ويؤكد ابن تيمية رفضه للتأويل قائلا انه يضع حقيقتين "حقيقة خاصة بالعلماء (القائمين بالتأويل) وحقيقة خاصة بالجمهور (الذى لا يعرف معنى اللجوء للتأويل) فى حين أن الحقيقة واحدة والحق واحد. (الفتاوى الكبرى- الجزء ٣- ص٢٤٥).

- أما الامام الغزالى فقد حيرنا موقفه من التأويل ويبدو أنه هو نفسه كان حائرا إزاءه فهو يقول "ويشترط فى القائم بالتأويل أن يكون جامعا بين البحث عن المعقول والبحث عن المنقول" (قانون التأويل- ص ١٢٣) لكنه يعود ويتراجع قائلا "والتأويل إما أن يكون بعيدا عن الفهم، وإما إنه لا يتبين فيه وجه التأويل وهو فى النهاية تخمين وظن وكلاهما جهل". وعلى أية حال فالغزالى يفسح السبيل امام دعاة التأويل ويحميهم مما قد يوقعهم فى مصير الجعد بن درهم ، فيقول "أن التأويل يمتنع من الاجماع ومن ثم يمتنع من التكفير" (تهافت الفلاسفة - ص٧٤) وهذا امر منطقى فإذا كان التأويل إعمالا للعقل فى البحث عن المعنى الكامن فى ظاهر النص. فإن العقول شتى وكذلك القدرة على الفهم ولهذا ستأتى تأويلات مختلفة ومن ثم يمتنع تكفير تأويل بتأويل آخر.

- وفى معجم "لسان العرب " نقرأ فى باب "أول - تأول" تأوله أى فسره، وقد ميز البعض بين التأويل والتفسير وأصبح التأويل هو البحث عن المعانى المحتملة التى تحتاج إلى ترجيح ما تقصد من مكنون للألفاظ اللغوية".

- والتأويل فى اللغة هو الارجاع ويقولون أول الشيء أى أرجعه. والتأويل هو إرجاع الكلمة إلى أصل أبعد من المعنى الحرفى لها. وهى عملية إرجاع ثنائى أى إرجاع الكلمة إلى الذهن لمعرفة معناها ثم إرجاع المعنى إلى ما وراء المصطلح عليه للتوصل إلى معنى المعنى.

- لكن على بن ابن طالب يحذر القائمين بالتأويل قائلا "علموا الناس على قدر أفهامهم حتى لا يكذبوا على الله ورسوله".

- ويقول الزبيدى فى (تاج العروس) نقلا عن ابن الكمال "التأويل هو حرف الآية عن معناها إلى معنى تحتمله إذا كان هذا المعنى المحتمل موافقا للكتاب والسنة".

- ويحدد الجرجانى الفارق بين التفسير والتأويل فيقول فى (شرح المواقف) التفسير هو الكشف والإظهار وفى الشرع هو توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذى نزلت فيه، وذلك بلفظ يدل عليه دلالة ظاهره، أما التأويل فهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله هذا إذا كان المحتمل الذى يراه موافقا الكتاب والسنة. مثل "يخرج الحى من الميت" فإن قال انه يعنى اخراج الطير من البيضه كان تفسيرا، وأن قال انه يخرج المؤمن من الكافر كان تأويلا.

- أما ابن رشد فيقول "تنفصل الشريعة إلى ظاهر وباطن، والباطن يخضع للتأويل الذى هو اخراج اللفظ من دلالته الظاهرة إلى دلالة مجازية (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال).

- وقد استخدمت كلمة تأويل فى زمن الجاهلية وهى ليست ابتكارا اسلاميا فقد قال ابن هشام فى السيرة "أن ربيعة بن نصر ملك اليمن قد رأى رؤيا هالته فدعى الكهنة ليخبروه بتأويلها" وفى هذه القصة وردت كلمة تأويل ثلاث مرات وهى قصة حدثت قبل الإسلام بأكثر من مائة عام. لكن هذه الكلمة كانت كثيرة التكرار فى العصر الإسلامى واكتسبت مفهوما مختلفا فى أكثر من زمان ومكان.

- وتكمن المسألة فى خصائص اللغة العربية فإذ قالوا لا مترادفات فى اللغة أعطوا كل كلمة معنى محددا لا تشاركها فيه كلمة أخرى، فالسير غير المشى والجلوس غير القعود واشعل ذلك ولع العرب شعراء وخطباء بالبلاغة فكان التشبيه ثم الاستعارة ثم المجاز ثم الكناية.. ثم من ذلك كله أتى التأويل.

- وفى الزمان الحديث كان الشيخ محمد عبده أحد أعمدة القول بالتأويل كسلاح للتحديث والتجديد والتلاؤم مع العصر وبناء دولة تتعايش مع زماننا. والأمثلة التأويلية عنده عديدة بلا حدود نختار منها تأويله لتعدد الزوجات فيقول فى مقال بعنوان "حكم الشريعة فى تعدد الزوجات" "فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ من مفاسد ومن مخالفة الشرع الشريف" (الاعمال الكاملة - المجلد الثانى- ص ٧٨). وكان التأويل سبيلا مكن محمد عبده من السماح بسعر الفائدة فى البنوك والتأمين على الحياة والتصوير

الفوتوغرافى واختيار ما يراه الانسان لائقا من ثياب، وعشرات أخرى من التأويلات. وهو ما رفضه أحد الكتاب المحدثين والقائلين بأن التجديد يعنى الارتداد لآراء السلف سعيا نحو المجتمع الذهبى الذى يعتقد انه إسلام الخلفاء الراشدين ، وبالتالى فهو يرفض موقف محمد عبده من حيث المبدأ ويقول " إن مدرسة الشيخ محمد عبده قد أعلت من شأن العقل وجعلت أحكامه مقدمه على النص الدينى فى حالة التعارض وسعوا إلى تقديم رؤية حضارية للإسلام مشترطين إلا تتناقض مع العقلانية والحرية، بل أن محمد عبده قد تحيف من حق النص وبالغ فى تقدير قيمة العقل" (أحمد عرفات القاضى- تجديد الخطاب الدينى) .. وواضح أن هذا الباحث ينطلق من فكرة أن اعمال العقل يتناقض مع النص وكذلك التأويل، ونشير إلى أن من قدم لهذا الكتاب وأشاد بكاتبه هو د. محمد عمارة . فى حين أن الشيخ الافغانى وقد سبق هذا المؤلف بأكثر من قرن ونصف يقول "أن الدين يجل عن مخالفة العقل فإن وقعت المخالفة وجب تأويل النص". والأصل فى الأمر كله هل يمكن للمسلم المؤمن أن يعيش فى تناقض مع العقل ومستحدثات الزمان والمكان؟ وربما كانت الاجابة عند داعش والقاعدة وليس عند المسلمين الأسوياء.

وإذا كان البعض قد اتخذ من التفسير اداة لنفاق الحاكم فكذلك كان التأويل. وإذا كان التأويل ضرورة حتمية للتلازم مع الزمان والمكان فقد تنوع التأويل بين تأويل ضرورى ومفيد للمسلم وللإسلام ذاته وبين تأويل مغشوش ومنه:

- التأويل نفاقا: والنموذج النموذجي لذلك هو أبو بكر الطرطوشي في كتابه "سراج الملوك" فهو يعطي للسلطان عبر التأويل سلطات بلا حدود بل هو يقارب بينها وبين صفات الذات الإلهية ونقرأ "فالله سبحانه وتعالى جبل الخلق على عدم الانصاف فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقر لهم معاش ومن الحكم التي وردت في إقامة السلطان، أنه من حجج الله على وجود سبحانه ومن علاماته على توحيده، فالعالم بأسره في سلطان الله، كالبلد الواحد في يد سلطان الأرض" وبعد هذا التأويل المغشوش يمضي الطرطوشي إلى بغيته وهي تبرير ظلم السلطان وجبروته وطغيانه "كذلك السلطان إذا كان قاهرا لرعيته كانت المنفعة به عامة، وكانت الدماء في أهبها محقونة والحرم في خدورهن مصونة والأسواق عامرة والأموال محروسة" (أبو بكر الطرطوشي - سراج الملوك- الباب السابع- ص ١٥٦).

ويظل استخدام البعض للتأويل أداة نفاق للحاكم حتى ايامنا هذه فعندما قام السادات بزيارته الشهيرة للقدس وما تلاها من تداعيات كان التأويل المنافق جاهزا باستخدام صلح الحديبية".

- التأويل للقتل: وبرغم الآية الكريمة "ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما".

يأتي ابن كثير ليقول مبررا "أن للقاتل توبة فإن تاب بدل الله سيئاته حسنات وعوض المقتول عن ظلامته وأرضاه عن ظالميه، لكن

الحاكم يستمر فى قتل معارضيه فيواصل ابن كثير نفاقه فيقول "فإن من قتل مائة نفس له توبة".

ويتمادى المنافقون فيقول ابو الحسن الموارى فى كتابه الأحكام السلطانية " إن أهل الرأى متى عقدوا البيعة للإمام لا يجوز لخلوق نقضها، لأن الرعية عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للإمام، ولا يحل لهم القيام عليه بحال من الأحوال". والنتيجة هى ما نراه الآن من جنون داعش والقاعدة واعتبارهم أن كل من يخرج عليهم أو لا يأخذ برأيهم كافر ويستحق مصير الجعد بن درهم.. أى الذبح.

وإذا كان الفقهاء ينافقون كذلك كان عديد من شعراء هذه الأزمنة وسأكتفى ببيتين من شعر:

ما شئت لا ما شاءت الأقرار فأحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما انت النبى محمد وكأنما انصارك الانصار

- وكذلك كان القانون الأساسى العثمانى "ذات الحضرة السلطانية مقدسة وغير مسئولة أمام أحد".

- وإذ يدعو حسن البنا إلى الخلافة يقول "أن الخلافة تقوم لوراثة النبوة (الرسائل . ص٢٧).

- التأويل لتبرير الغزو العثمانى: كان سلطان مصر قنصوه الغورى وكان يقوم كل عام بالواجب المصرى القديم برعاية الأماكن المقدسة سواء فى مكة أو المدينة أو القدس. وأتى البريد بأن الخليفة العثمانى يحشد حشوده لغزو مصر فوجه رسالة إلى السلطان سليم الأول جاء فيها "علمنا انك جمعت عساكرك وعزمت على

تسييرهم علينا فتعجبت نفسنا غاية التعجب لأن كلنا والحمد لله من سلاطين أهل الإسلام، وتحت حكمنا مسلمون موحدون". فرد السلطان كاذبا وقال "يعلم الله وكفى به شهيدا أنه لم يخطر ببالنا طمع فى أحد سلاطين المسلمين أو فى مملكته فالشرع الشريف ينهى عن ذلك" (ابن اياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الجزء الثانى- ص ١٢٤) لكن السلطان الذى كان مصمما على غزو مصر طلب فتوى تبيح له ذلك.. وكان التأويل سلاحا فى يد قاضى عسكر الاناضول كمال باشا زاده واستند إلى الآية "ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أنه الأرض يرثها عبادى الصالحون" وظاهر النص وباطنه بعيد تماما عن مصر وعن الغزو، ولكن التأويل عندما يصبح ألعوبة فى يد المنافق يمكنه أن يقول "أن الأرض هى مصر لأنها وردت فى آية قرآنية أخرى مشيرة إلى مصر، أما "عبادى الصالحون فهم طبعا العثمانيون. وتكتمل الدائرة إذ يسرع مفتى الأستانة فيصدر الفتوى "يفتى مفتى الأنام شيخ الإسلام بوجوب غزو مصر لأن أهلها قطاع طرق، والحرب والقتال ضدهم غزو وجهاد، والمقتول من جيوش السلطان فى هذه الغزوة شهيد ومجاهد" (ألا نلمس ذات لهجة داعش والقاعدة؟) وتقترب الجيوش العثمانية من مصر ويلعب سليم الأول ذات اللعبة التى رسمها له تابعاه كمال باشا زادة ومفتى الانام فيرسل إلى سلطان مصر وكان آنذاك طومان باى قائلا" أن الله قد أوحى إلى بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الأسكندر ذو القرنين، وأنا خليفة الله فى

أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين" ، وأتى العثمانيون إلى مصر ولخص ابن اياس ايام دخولهم الهمجى إلى مصر قائلا "أنهم اشعلوا فى مصر جمرة نار ونهب العسكر العثمانية كل شيء من الأموال والجوارى وأثاث المنازل واسقف البيوت وشون القمح ومواشى الفلاحين واغنامهم ودجاجهم، وفى الشرقية وصل جيش العثمانيين بقيادة جان بردى الغزالى ليرتكب جرائم وحشية فأسر الصبيان وسبى الفتيات وباعهم فى سوق العبيد، ويقول "وصارت جثث المصريين مرمية من باب زويلة إلى الرميلة إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان، وترك سليم فى مصر واليا يقول عنه ابن اياس "أنه كان يصبح كل صباح وهو مخمور فيحكم بالعسف والظلم وهو سكران" . (ابن اياس- المرجع السابق ص٢٧) .[١]

لكن ذلك الانحراف بالواجب الدينى والحتمى فى ضرورة التأويل لا يمنعنا من الاصرار على فهم واعادة فهم نصوص القرآن ومعانيها وما تحتويه من كنوز أتت فى ثنايا النص بما يفرض علينا استنباطها وتأويلها لنفرض إرادتها على التأسلم والمتأسلمين ونفضح دعاواهم ونعبئ المسلمون ضدهم وتؤكد لهم أن التأويل يمنحنا القدرة والقوة فى الوصول لفهم مكنون النص لنستعيد اسلامنا الصحيح ونخلصه من الإسلام الزائف (كما قال الإمام محمد عبده) أو الإسلام المشغوش (كما قال الإمام الحالى الشيخ أحمد الطيب) . نستعيد إسلامنا وننطلق فى تناغم مع العلم والعقل ومستحدثات العصر ونبنى وطنا حرا وسعيدا.

(٩)
وماذا عن الخلافة؟

ولم يزل هذا الموضوع يثير تساؤلات عدة. وبرغم أن موضوع الخلافة قد أثار على مدى التاريخ خلافا شائكا بين الفقهاء. وبرغم أن القرآن والسنة لا يمكن اقتناص نص صريح واضح منهما ينحو نحو وجوب اقامة الخلافة، وبرغم كل المنازعات والخلافات والاغتيالات بين الاخوة والاقارب المتنازعين على المنصب، وبرغم تحول الخلافة من بيعة حرة متحررة إلى ملك عضوض كما أسموه فإن البعض ممن يسعون للتسلط والسلطة عبر مزاعم الخلافة يسعون إليها بزعم أنها إقامة للدين ولا قيامة له بدونها، ألم يقل حسن البنا وهو يذوب شوقا لموقع "الإمامة" أن "الخلافة وضعت لوراثه النبوة"؟

والسؤال الملح هو هل صحيح أن الخلافة فريضة واجبه النفاذ لا

يكتمل إسلام المسلم إلا بإقامتها ؟ للاجابة على هذا السؤال نحاول وبإيجاز فحص هذا الموضوع من بدايته .

وكعادتنا نبدأ بالتعريف اللغوى ففى القاموس الوسيط نقرأ تعريف الكلمة" والخلافة هى الإمامة والخليفة هو المستخلف والسلطان الأعظم" أما التعريف المصطلح عليه فهو إن الخلافة " رئاسة عامة للمسلمين فى كل الدنيا" .

وعند وفاة الرسول(صلعم) ثارت هذه المسألة وتطلع البعض من آل بيته لخلافته لكن عمر بن الخطاب كان واعيا بأن ذلك قد يتحول إلى تقليد مستمر فقال لابن عباس" إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا فى السماء شمخاً بذخاً" (١) . لكن أبا بكر كان يعرف حدوده كحاكم مدنى ،وكان يدرك أنه لا يمتلك سلطان أن يسوس الناس كما كان يسوسهم الرسول الذى كان يوحى إليه والذى كان له فضل النبوة . فوقف فى الناس يوم توليه الخلافة قائلا " أما والله ما أنا بخيركم ، ولقد كنت لمقامى هذا كارها ،ولوددت أن فيكم من يكفينى" ثم سأل الجالسين حوله" أتظنون أنى أعمل فيكم بسنة رسول الله؟ إذن لا أقوم بها ، إن رسول الله كان يعصم بالوحى، وكان معه ملك ،وإن لى شيطانا يعترينى ، إلا فراعونى ، وإن زغت فقومونى"(٢) .

لكن الأمر لم يستقر . فقد ظل أتباع سيدنا على ولم يزالوا يعتقدون بأحقيته فى خلافة الرسول بل هم يضيفون أحيانا إلى خطبة الرسول فى حجة الوداع ما يوحى بذلك ونقرأ:" على منى وأنا

من على، من كنت مولاه فهذا على مولاه اللهم والى من والاه، وعاد من عاداه ، إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى ، كتاب الله وعترتى أهل بيتى" ثم نقرأ تعليقا على هذه الإضافات" إن الوصية مدقوقة كالوشم على جبين على ، لا التاريخ عمى، ولا أى رجل كريم من رجالات ذلك العصر كان يعمى

– لأهمية هذا البحث وأهمية الرجوع إلى مراجه أتت المراجع فى نهايته.

عن قراءة الحقيقة .ولكن سياسات الزعماء المتشربين روح القبلية هى التى عميت" ، ثم يكون الهجوم على عمر بن الخطاب شديداً وقاسياً ونقرأ " لم يكن عمر بن الخطاب ضعيف السجية، أنه كريم عفيف بين الرجال ، ولكن عنجهية قبلية نائمة فى بطانة نفسه ما سمحت له، ولا قبلت أن يتقدم عليه وعلى أمثاله من وجهاء الجزيرة فتى لا يزال أمرد، لقد كان حس ابن الخطاب بمركز الزعامة أرجح من حسه بقيمة الرسالة، إن هناك خبيئة من الماضى الوخيم تعشش فى ضلوعه ، إنها الأموية فيه ضد الطالبية الهاشمية" (أى ضد بنى طالب وبنى هاشم) .[٣] ثم يتهم البعض عمر بن الخطاب بأنه "وظف اجتماع سقيفة بنى ساعده ليبعد عليا عن حقيقته وحقوقيته فى الإمارة وإحلال أبى بكر فيها كأنما الرضوخ لمشيئة النبى هو الخطأ ، والوقوع فى المعصية هو الصواب "[٤].

وهكذا فتح باب الصراع حول الحق فى الحكم على مداه ، وتمادى حتى الآن.

ومنذ اليوم الأول لوفاة الرسول تحول أمر الحكم إلى مسألة إنسانية ، فالوحى انقطع ، وحكم الحكام بالرأى أو بما يعتقدون هم أنه متطابق مع الشرع ، لكن هذا الاعتقاد يبقى هو أيضا إنسانياً يحتمل الصواب والخطأ.

ويختلف الحكام فى أحكامهم وفى أسلوب تعاملهم مع الناس . فعثمان كان هادئا وديعاً وغير عنيف فى أحكامه فأسموه بالضعيف وعاملوه على أساس ضعفه فوقف صارخا ذات يوم على المنبر قائلا وفقا لرواية الرواة "كان ابن الخطاب يغلظ عليكم، ويؤذيكم بلسانه ويده، ويطأكم بقدمه ففخمتموه وعظمتموه، ألا إن حلمى هو الذى جرأكم على" .

وهكذا تنوع الحكام وتنوعت أحكامهم. ويروى الإمام السيوطى أن الخليفة عبد الملك بن مروان(حكم ٧٣-٨٦هجرية) خطب يوم ولايته قائلا" أيها الناس : لست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا بالخليفة المداهن(معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يزيد) ألا إنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم ، والله لا يفعلن أحد فعله إلا وجعلتها فى عنقه ، والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه"(٥)

وهكذا كانت الأمور على الدوام، فالشريعة والقول بالحكم بها كانا يتحولان دوماً إلى أفعال إنسانية ،والبشر يتشكلون بحسب إنتماءاتهم ومصالحهم وأخلاقياتهم . وما كانت هذه الأحكام جميعا إلا مسائل إنسانية لا علاقة لها بما ترتديه من ثياب دينية . ذلك أن

الإسلام ما كان ولن يكون كذلك الذى فعلوا، وهو لا يقبل بذلك.

والحكام المتجبرون أجبروا الناس على الخضوع لما يريدون وتعالت أصوات المنافقين لتخترق كل حواجز النظر الإسلامى لهذا الحكم . ونستمع إلى شعر يقول:

إن الخليفة قد أبى
وإذا أبى شيئا أبيته

وشاعر آخر يصل إلى حدود غير مقبولة مخاطباً الخليفة:

ما شئت لا ما شاءت الاقدار
فإحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبى محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

ويتضاحك أحد الشعراء على هؤلاء المنافقين فيقول :

ما قال لا إلا فى تشهده
لولا الشهادة كانت لاؤه نعم

وما كان ذلك إلا لأن بعض فقهاء السلطان قد وصفوا هذا النوع من الحكام بأنهم خلفاء الله فى الأرض ، أو حتى خلفاء رسول الله. ثم كان الأمر كذلك الأمر فى العصر الحديث فأبو الأعلى المودودى يقول: إن المطلوب للمسلمين الآن هو " حاكم يقوم بوظيفة خليفة الله، فليس لأحد أن يأمر وينهى من غير أن تكون له سلطة من الله"(٦) وقبله قال أبو الحسن الموارى فى كتابه الأحكام السلطانية" إن أهل الرأى متى عقدوا البيعة للإمام لا يجوز لمخلوق نقضها ، لأن

الرعية عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للإمام ما وسعتهم الطاعة ، ولا يحل لهم القيام عليه بحال من الأحوال. " أما القانون الأساسى العثمانى فينص " ذات الحضرة السلطانية مقدسة وغير مسئولة أمام أحد" .. وفى مصر نسمع ذات الشيء من حسن البنا إذ يقول إن الخلافة تقوم لوراثة النبوة(٧) ومثله يقول عمر عبد الرحمن " الإمامة فى الإسلام موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا" (٨).

وينسى هؤلاء جميعا أن المسلمين كانوا أكثر فطنة فأسموا الأمور بمسماها الحقيقى، فكل خلافة وكل دولة نسبت إلى اسم بشرى: الدولة الأموية -العباسية-السلجوقية-العثمانية .. إلخ ولو كانوا يعتقدون بغير ذلك لما تواتر استخدامهم للأسماء البشرية على مدى كل العصور.

ويبقى للتساؤل ما هو الموقف الفقهى من فكرة الخلافة ذاتها؟

- يقول الشهرستانى فى كتابه نهاية الاقدام " إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد ".

- ويقول الجرجانى " إن الخلافة ليست من أصول الديانات والعقائد بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين" (الجرجانى - شرح المواقف) . - أما الامام الغزالى فيقول "إن الإمامة ليست من المعتقدات" (الاقتصاد فى الاعتقاد) . - أما أبو حفص عمر بن جميع فيقول" إن الإمامة مستخرجة من الرأى وليست مستخرجة من الكتاب والسنة" (عقيدة التوحيد) . أما الإمام نجم الدين

النسفى يقول فى كتابه العقائد النسفية" يشترط الإمام أن يكون من قريش ولا يجوز من غيرهم" . -ويكمل القاضى عضد الدين فى كتاب "المواقف" "فإن لم يوجد شخص مستجمع شروط الإمامة فلا يشترط قيامها" .

- أما الآمدى فيقول" واعلم أن الكلام فى الإمامه ليس من أصول الديانات ، بل لعمرى فإن المعرض عنها لأرجى حالا من الواغل فيها ، فإنها لا تنفك عن التعصب والأهواء ، وإثارة الفتن والشحناء"(٩) .

ونأتى بعد ذلك إلى القرآن الكريم فالكثيرون من دعاة الخلافة يستندون إلى آيات من القرآن مثل" إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله" (النساء :١٠٥) لكن البيضاوى فى تفسيره والقرطبى فى كتابه "الجامع لأحكام القرآن" يؤكدان أن كلمة "تحكم" هنا تعنى أن تكون قاضيا بينهم . ويؤكد أغلب الفقهاء أن كلمة" الحكم" تعنى فى القرآن "الحكمة" أو" الرأى السديد" ويستدلون على ذلك بآيات عدة" يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبياً" (مريم١٢) ولم يكن النبى يحيى حاكما بل منحه الله الحكمة وهو صبى . وآية أخرى عن عيسى بن مريم تقول" ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى" (آل عمران ٧٩) ،ولم يكن السيد المسيح حاكما . وكذلك لوط "ولوطاً آتيناه حكما وعلماً" (الأنبياء ٧٤) وموسى " ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً" (القصص١٤) .

وعديد آخر من الآيات الكريمة . تؤكد كلها فى معناها وفى حقيقة ما تتحدث عنه أن فكرة الحاكم المتحدث باسم السماء والحاكم بأمرها ليست واردة فى القرآن الكريم..

ومنذ الغزو الخادع للعثمانى المتوحش سليم الأول والجرائم التى ارتكبها ضد المصريين هو والولاة الذين تركهم بعد عودته، ظل المصريون ورغم اعتقادهم بضرورة الخلافة يهتفون من اعماقهم "يارب يا متجلى اهزم العثماللى".

والحقيقة أن نظام الخلافة العثمانى كان يقوم على أساس عنصرى يرفض الآخر، ومنطق استبدادى وطبقى يحتقر الجميع ويترفع عليهم بما فيهم الهيئة التركية الحاكمة ذاتها. ونقرأ للدكتور عبد العزيز الشناوى (١٠). فالهيئة العثمانية الحاكمة بأكملها من أصغر موظف وحتى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) كانت بكل أعضائها عبيداً للسلطان ويطلق عليهم المصطلح التركى «قولار»، أى العبيد ومفردها «قول» أى العبد ويقصد به عبد السلطان، وكانت هذه هى تسميتهم جميعا فى الأوراق الرسمية».

وتظل العلاقة المصرية العثمانية علاقة خصومة، وإن كان الجمهور الذى يهتف من أعماقه بهلاك العثماللى يواصل خضوعه للخليفة العثمانى باعتباره خليفة المسلمين، أنه ذات التناقض الذى وجد فيه المصريون أنفسهم وهم يخوضون غمار الثورة العرابية. فمنذ البداية حاول عرابى ألا يستثير السلطان العثمانى لكنه فى ذات الوقت حاول أن يحافظ لمصر على سيادتها.. ويروى ولفريد بلنت أكد لى

عرابى «نحن جميعا أبناء السلطان نعيش كأفراد أسرة واحدة فى بيت و احد، كل منا له إقليم من الإمبراطورية كبيت الأسرة كل منا له حجرة مستقلة فى المنزل، وهى حجرة خاصة بنا نتصرف فيها وفقا لإرادتنا ويجب ألا نسمح لأحد بأن يعبث بسيادتنا وعلى وضعنا المستقل» (١١) ويكتب صابونجى إلى بلنت رسالة أكثر وضوحاً «أن العرابيين يتملقون السلطان ويعلنون ولاءهم له كخليفة للمسلمين لكن الحقيقة هى أن السلطان لا يعنيهم فى شىء وحين يحسون بقوتهم سيعلنون إقامة حكومة جمهورية » (١٢).

وكان السلطان هو أيضا يكره عرابى ويسعى لإفشال ثورته لكنه يحاول خداعه وتملقه فقد أصبح عرابى زعيما ذا نفوذ كبير فى إرجاء أقاليم عديدة. وأخيرا أرسل السلطان حملة إلى مصر لتأديب عرابى وانهالت الاعتراضات من مختلف المسلمين فى الشام والهند وسيلان والسودان وغيرها.. وتصل الحملة إلى اللاذقية ويصف مراسل «التيمس اللندنية» موقف السكان منها قائلا «لقد حدث هيجان شديد وأعلن السوريون مقاطعتهم للحملة وامتنعوا عن التعامل معها وأظهروا الجفاء والامتهان لها ناعين عليها خروجها لحرب المسلمين. وخرج عن المقاطعة أحد كبار التجار فباع الجنود العثمانيين طعاما ولحوما فلم ينته اليوم حتى أحرقت كل متاجره فى المدينة وكان الرجل يطلب النجدة كالمجنون من الأهالى فيبصقون فى وجهه ولا يتحركون لمساعدته بل يتهكمون عليه قائلين أطلب النجدة من سادتك الأتراك» (١٣).

.. وفى الوقت الحرج تماما وصلت من الاستانة إلى الجيوش المصرية وهى تحارب الغزاة الإنجليز فى معركة صعبة كميات هائلة من «الجوائب» وهى الجريدة الرسمية للخلافة الناطقة بالعربية، وقد تم توزيعها على الجنود وعلى السكان فى مختلف أنحاد القطر وفى صدرها كلمة «بيانامه» ثم بيان طويل جاء فى مقدمته «بإرادة سيدنا ومولانا السلطان أمير المؤمنين خليفتنا الأعظم إشعاراً لجميع المسلمين بأن الأفعال التى أجراها عرابى وأعوانه ورفقاؤه فى مصر مخالفة لإرادة الدولة العلية السلطانية، ومغايرة لصالح المسلمين. وبناء على ذلك تقرر أن عرابى وأعوانه عصاة بغاة وبهذه الصفة تجرئ معاملتهم» (١٤).

ولا يبقى أمام المصريين سوى أن يواصلوا شعارهم القديم «يارب يا متجلى إهزم العثمالللى» وأن يضيفوا إليه شعاراً موحياً «الولس هزم عرابى».

لكن العلاقة المصرية بموضوع الخلافة تظل ملتبسة. ففى مطلع القرن العشرين وعندما تأسس الحزب الوطنى شهد وبعد فترة من تأسيسه صراعاً حاداً بين تيارين الشيخ جاويش ينتمى للخلافة ويؤكد «إن إضاعة الخلافة إضاعة للذات» ومحمد فريد وبعد أن أصدر كتابا يؤيد السلطان العثمانى عاد كى يؤكد على مصرية مصر ويشكو فى مذكراته من أن الشيخ جاويش كان يعترض على أعضاء الحزب الذين «يضعون على صدرهم دبوساً كتبت عليه عبارة مصر للمصريين» ويقف إلى جانب الدعوة المصرية كثير من الكتاب

ومنهم مثلا عبد القادر أفندى حمزة ومنصور فهمى وغيرهما.

أما قاسم أمين فيهاجم الخلافة بشدة قائلا إنها نظام يقوم على أساس «خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم موظفين غير مقيدين، وربما يقال إن هذا الخليفة يستمد سلطته من الشعب الذى بايعه، لكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق هى سلطة لفظية أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر والنهى. ثم يقول "أن من أسباب نكبتنا أننا نسند حياتنا على التقاليد التى لم نعد نفهمها ونحافظ عليها فقط لأنها أتت من الماضى».

أما الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فقد رفض من الأساس فكرة وجود خليفة يحكم باسم السماء وقال «إن السيادة قسمان : سيادة عليا يختص بها الله تعالى، وسيادة أقل درجة يختص بها الشعب وعليه ممارستها. ومن هذه السيادة تكتسب الأمة شرعية دورها كمصدر للسلطة. أما الحاكم فيكتسب سلطته من الشعب » (١٥) ثم هو يقول جازماً «ومن الضلال القول بتوحيد الإسلام للسلطتين المدنية والدينية، فهذه الفكرة خطأ محض ودخيلة على الإسلام، ومن الخطأ القول أن السلطان هو مقرر الدين وواضع أحكامه ومنفذها» ثم يعلو صوته مؤكداً «ليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية أو المؤسسة الدينية بوجه من الوجوه، ولم يعرف المسلمون فى عصر من العصور تلك السلطة الدينية» (١٦).

وتمضى المعركة سجالاً لتأتى ثورة ١٩١٩ فتحسم الأمر لصالح الدولة المدنية ولصالح شعار جديد «الدين لله والوطن للجميع».

لكن وهم الخلافة يبقى، ولعل أول من ادعى قيامه فى ايامنا المعاصرة وتحديدا فى أفغانستان على يد الملا عمر .. والملا هو طالب الدين الذى لم يتم تعليمه أما المولوى فهو الطالب الذى أتم تعليمه وتخرج عالماً فى الشريعة. نحن إذن إزاء مجرد طالب فى مدرسة دينية ومع ذلك أسمى نفسه رسميا "المجاهد الأكبر ؛ خادم الإسلام، أميرالمؤمنين ملا محمد عمر المجاهد". وقد أسس ملا عمر إمارته على أنقاض المتصارعين على السلطة فى أفغانستان من "المجاهدين" بعد انسحاب الجيوش السوفيتية، وكان صراعهم وحشياً. وقد بدأ حركته فى قرية "كشك نخود" حيث أخذ قطعة من قماش أبيض كتب عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ورفعها على أحد مبانى القرية معلنا قيام حركته التى تجمع حولها خمسون طالبا.. وبهم أسس دولة الخلافة التى تزايد عدد جنودها ليصل إلى ٣١٣.

ونطالع بعض معلومات عن هذه الإمارة وردت فى كتاب "طالبان. العمائم والمدافع والأفيون" لمؤلف مصرى هو الأستاذ عبد الحليم غزالى وربما كان هذا الصحفى أحد القلائل الذين تلقوا "بشارة" من إلتقى الملا عمر وأجرى معه حواراً، إذ يعتقد الطلبانيون أن من يقابل الملا ولو مرة واحدة لن يدخل النار مهما فعل. والمعلومات والمواقف كل منها مثير للدهشة.

- عارف الله العارف نائب وزير الاقتصاد لم يدرس الاقتصاد وليس لديه أية إحصائيات أو أرقام. وعندما سأله الصحفى عن رأيه فى "العولمة" قال أنها أول مرة يسمع فيها هذه الكلمة.

- ملا محبوب الله رئيس فرع البنك الوطنى فى قندهار لم يدرس الأقتصاد ويقول ببساطة: ذهبت إلى كابول وتعلمت كيف تحفظ الأموال. وهو لا يعرف معنى كلمة تضخم.

- مبادئ الإمارة ترفض الانتخابات فهى بدعة نصرانية، وكذلك الديمقراطية، والأمير يستمع لأهل الشورى لكنه فى نهاية الأمر يعمل برأيه هو إعمالا لقوله تعالى: "فإذا عزمت فتوكل". - لا يجوز تصوير ما فيه روح، الغناء والموسيقى ممنوعان - وقد سمح الأمير بزراعة الأفيون والاتجار فيه، وتحصل الإمارة على ذكاة الزروع من منتجية وهى العشر ويقدر تقرير للأمم المتحدة أن إنتاج الأفيون قد زاد بنسبة ٨٤٪ فى ظل حكومة طالبان وبلغت قيمته ١٠٠ مليون دولار (٢٨)) أما عن دور أسامة بن لادن فى هذه الإمارة فهو معلوم بما لا يحتاج إلى مزيد من الايضاح،.. وكذلك مصير دولة الخلافة ومصير أميرها المجاهد الأكبر خادم الإسلام أمير المؤمنين.

* * *

رغم أن المهووسين بفكرة الخلافة قد اخترعوا لها عدة قواعد البعض قال " يجب أن يكون الخليفة قرشيا والا فلا تجب " والبعض قال " ومتى بويع الخليفة فهو مطاع فى كل أمر ومن نازعه الخلافة يقتل " والبعض أكد " وإذا بويع الخليفة يبقى مدى حياته ولا يجوز عزله إلا عن عجز يمنعه أو كفر بواح " والادعاءات كثيرة والمزاعم أكثر . ومع ذلك تكاثر " الخلفاء " حتى رخصت بضاعتهم . فأيمن الظواهرى]القاعدة [خليفة وأمير للمؤمنين . وأبو بكر البغدادى]

داعش [خليفه ينازعه الأمر فيستحق القتل ، وثمة خليفة جديد لطالبان بعد إعلان وفاة " أمير المؤمنين " ملا عمر التى أعلن عنها بعد حدوثها بعامين وبويع بدلا منه الملا أختر منصور على غير رضا من آخرين قد ينقسموا، ويقول العارفون بثقة أن اختر منصور عميل للمخابرات الباكستانية التى تعتبر فرعاً للمخابرات الأمريكية . وخلفاء آخرون تناثروا من بوكو حرام أو شباب الصومال إلى آخر فى فيافى موريتانيا . ألم أقل تكاثروا حتى رخصت البضاعة .

وفيما يمارس كل خليفة هوايته فى أن يكون أميراً للمؤمنين يحكم ويتحكم فى رعايا مساكين، يستلهم الجميع ودون خجل ما أسمى فى سوق الخلافة " دستور دولة الخلافة " والنسخة التى تحت أيدينا يرجع تاريخها إلى ٢٠١٠ - ١٤٣١ هـ وهى صادرة عن حزب التحرير الاسلامى وتستمتع بعبارة على غلافها " طبعة معتمدة " . ولنبدأ بالتعريف بهذا الحزب الذى تأسس فى القدس ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٣م [على يد من تصفه وثائق الحزب " العالم الجليل والمفكر الكبير والسياسى القدير والقاضى فى محكمة الاستئناف بالقدس الأستاذ تقى الدين النبهانى عليه رحمة الله . كتيب صادر عن الحزب - أبريل ٢٠١٠ بعنوان " حزب التحرير "

وكان النبهانى عضوا بجماعة الإخوان . لكنه اختلف مع الجماعة لأنها تعجلت الصدام المسلح الأمر الذى استدعى هجمات عنيفة عليها ويؤكد النبهانى فى أكثر من كتاب له " لكون المسلمين يعيشون فى دار كفر فان دارهم تشبه مكة حين بعثه الرسول حيث لا

دولة فكانت مرحلة نشر العقائد والدعوة لاستعادة الخلافة كشرط جوهرى لنجاح الدعوة . واستمرت مرحلة نشر العقائد ثلاثة عشر عاما حتى هاجر الرسول للمدينة وأقام دولته ، وطوال المرحلة المكية كان الرسول ينشر الدعوة سراً ويلتقى بالمسلمين منهم سراً ويعلمهم سراً ويتعبدون سراً حتى فشا ذكر الإسلام بمكة "]لمزيد من التفصيل راجع كتب - التكتل الحزبى - نظام الإسلام - الخلافة للنبهانى .[نبدأ فى تحديد مفاهيم الحزب ونقرأ " إقامة خليفة فرض على المسلمين كافة كأى فرض فرضه الله وهو أمر محتم ولا تخيير فيه والتقصير به معصية يعذب الله عليها أشد العذاب " ثم " ولا توجد فى الإسلام آية رخصة فى القعود عن القيام بهذا الفرض . والمدة التى يمهل فيها المسلمون لإقامة خليفة بعد وفاة أو سقوط حكم الخليفة القائم ليلتان فلا يحل لمسلم أن يبيت ليلتين وليس فى عنقه بيعه " وتقتضى شريعة الحزب " وجوب تطبيق الإسلام تطبيقاً كاملاً شاملاً دفعة واحدة وتحرم تطبيق جزء منه " و" المسلم ليس حراً فى عقيدته فإذا ارتد يستتاب فإن لم يرجع يقتل " و"النظام الديمقراطى كفر " و"الأمة لا تملك التشريع فليس لها سيادة ولو أجمعت الأمة على إباحة ما حرم الله تقاتل" "حضارة الإسلام تحرم صنع التماثيل واقتنائها وتحرم رسم كل ذى روح " و" النظام الجمهورى نظام كافر ومن يؤمن به كافر " و" لا يجوز لمسلم أن يعتنق أية عقيدة لمبدأ آخر كالرأسمالية أو الاشتراكية فهى جميعا كفر " أما حرية الرأى فحرام " لأنها تعنى السماح للعملاء والمنافقين والفجار وأعداء الإسلام

بالدعوة ضد الإسلام وهدم كيان الأمة وتمزيقها إلى قوميات وأقطار وطوائف وفئات" ولكن وبرغم هذا التشدد الواضح الذى يؤسس لأفكار داعش فإنه يكتسب كما تكتسب داعش تعاطفاً ومشاركة من الكثيرين من شباب أوربا وشباب أمريكا ذلك أنه يقدم نفسه لهم بصورة مغرية فإذا كانت داعش تمنيهم بنكاح الجهاد وبتزويجهم مثنى وثلاث ورباع . وبحقهم فى شراء الجوارى فإن النبهانى قد فعلها ولكن فى حدود المتاح له كحزب معارض وسرى فى كثير من الأحوال ففى نشرة سؤال وجواب - ١٩٧٠م [سؤال" ما حكم القبلة بشهوة ؟ والإجابة " التقبيل من حيث هو تقبيل ليس بحرام لدخوله تحت عموم الأدلة المبيحة لأفعال الإنسان العادية والصور العارية ليست حراماً]الاحظ أنه فى فتوى أخرى قال أن صناعة التماثيل حرام وأن تصوير المخلوقات حرام]وتقبيل الرجل لامرأة فى الشارع سواء كان بشهوة أم بغير شهوة مباح . والمرأة إذا لبست الباروكة ولم تطع زوجها فى خلعها لا تكون ناشزة ، كذلك إذا لبست البنطلون وإذا خرجت لحضور مهرجان أو مؤتمر بدون إذن زوجها لا تكون ناشزة" وهكذا انتشر الحزب فى دول الغرب . ونجح فى بناء قاعدة حزبية قوية فى انجلترا كان أميرها عبد القادر زلوم - ثم قاعدة واسعة فى عدد من الجامعات الأمريكية وخاصة جامعة شيكاغو التى تولى توبد بت موقع القيادة فيها ثم سافر إلى لاهور ليؤسس فرعاً قوياً للحزب فى باكستان . وفى ابريل ٢٠٠٢ اعتقل الأمن المصرى تنظيماً يضم خمسين مصرياً وأربعة بريطانيين .

إنها ملامح داعش وأساسها الفكرى أليس كذلك ؟

والدستور منشور فى كتيب من خمسين صفحة وعلى غلافه عبارة " طبعة معتمدة " . ونلاحظ أن الكتيب يخلو من المعلومات المفترضة (الناشر - مكان النشر - تاريخ النشر) فيبدو أنه مطبوع سرى ، ولن نستعرض الدستور المقترح ماده مادة وإنما فقط بعض امثلة تفى بالغرض. والدستور مكون من ١٩١ مادة . لكننا نؤمل وقبل القراءة أن نستعد لنتأمل الكلمات وما يستتبعها من مواقف ونرى كيف تتلمذت القاعدة وداعش على كل حرف وعلى كل موقف . ونبدأ بالمقدمة .

" هذا مشروع دستور لدولة الخلافة ، نضعه بين أيدى المسلمين وهم يعملون لإقامة دولة الخلافة وإعادة الحكم بما أنزل الله ليتصوروا واقع الدولة الإسلامية وشكلها وأنظمتها وما ستقوم بتطبيقه من أنظمة الإسلام وأحكامه . وهذا الدستور اسلامى ليس غير ، وليس فيه شئ غير اسلامى ، وهو دستور ليس مختصا بقطر معين ، بل هو لدولة الخلافة فى العالم الاسلامى بل فى العالم أجمع باعتبار أن دولة الخلافة ستحمل الإسلام رسالة نور وهداية إلى العالم أجمع . ثم نأتى لبعض مواد الدستور

م٢ " دار الإسلام هى البلاد التى تطبق فيها أحكام الإسلام . . ودار الكفر هى التى تطبق أنظمة الكفر . م ٣ " يتبنى الخليفة أحكام شرعية يسنها دستوراً وقوانين ، وإذا تبنى حكما صار هذا الحكم وحده الحكم الشرعى الواجب العمل به ، وأصبح حينئذ قانونا نافذا

، وجبت طاعته على كل فرد من الرعية ظاهراً وباطناً . م ٧ و " تنفذ الدولة الأحكام الشرعية وسائر أمور الشريعة الإسلامية من معاملات وعقوبات وبينات ونظم حكم واقتصاد وغير ذلك على الجميع أى على المسلمين وغير المسلمين وكل من هو تحت سلطان الإسلام إلا السفراء والقناصل فإن لهم الحصانة الدبلوماسية . م ١٨ "الحكام أربعة هم : الخليفة ومعاون التفويض والوالى والعامل . م ١٩ " لا يجوز أن يتولى الحكم أو أى عمل يعتبر من الحكم إلا رجل حر ، بالغ ، عاقل ، عدل ، قادر ولا يجوز أن يكون إلا مسلماً " . م ٢٢" يقوم نظام الحكم على : " السيادة للشرع لا للشعب - نصب خليفة واحد فرض على المسلمين - للخليفة وحده حق تبنى الأحكام الشرعية فهو الذى يسن الدستور وسائر القوانين - وهو ينوب عن الأمة فى السلطان وفى تنفيذ الشرع .

]وهكذا أعطى هذا الدستور للخليفة كل حقوق التحكم والتشريع وكلمته هى الشرع ذاته الواجب الاتباع [فكيف يتم اختيار الخليفة

م ٣٠ " لا يشترط فيمن يبايع للخلافة إلا أن يكون مستكملا شروط الانعقاد وهى أن يكون رجلا - مسلماً - حراً - بالغاً - عاقلاً - عادلاً - قادراً من أهل الكفاية .]ولكن المهم والمثير للدهشة أن الدستور ينص بوضوح " [يكون مستكملاً شروط الانعقاد وان لم يكن مستوفيا شروط الأفضلية ، لأن العبرة بشروط الانعقاد " بمعنى أن النظر لا يكون للأفضل .

وماذا لو خلا منصب الخليفة " يجب نصب خليفه مكانه خلال

ثلاثة أيام بلياليها " " ولا يجوز تمديدها إلا لسبب قاهر توافق عليه محكمة المظالم . وبعد ذلك نقرأ " مادة ٣٥ " الأمة تنصب الخليفة ولكنها لا تملك عزله . م ٣٨ وفيها نجد أن للخليفة مطلق الصلاحية فى رعاية شئون الرعية حسب رأيه واجتهاده " ولكن الدستور يحرم الخليفة من أى حكم يخالف الشرع حتى لو تذرع بحجة المصلحة فليس له أن يسن قانونا بتحديد النسل ولا يحق له أن يصدر تسعيرة بحجة منع الاستغلال، ولا يجوز له أن يعين كافرا أو إمرأة]لاحظ معاملة المرأة معاملة الكافر [واليا . . وعن القضاء نقرأ م ٨٣ " القضاء من حيث البت فى القضية درجة واحدة ونطق القاضى بالحكم يجعله نافذاً ولا ينقضه حكم قاض آخر مطلقاً - م ٨٥ " يملك المحتسب الحكم فى المخالفة فور العلم بها فى أى مكان وينفذ حكمه فى الحال وتحت يده شرطه لتنفيذ أوامره " .

وماذا عن الشورى؟ م ١٠٨ " الشورى هى أخذ الرأى وهى غير ملزمة وهى حق للمسلمين وحدهم ورأى مجلس الأمة استشارى وغير ملزم " . وماذا عن وضع المرأة فى دولة الخلافة؟

م ١١٢ " الأصل فى المرأة أنها أم وربة بيت " ، و م ١١٣ " والأصل أن ينفصل الرجال عن النساء ولا يجتمعون إلا لحاجة يقرها الشرع كالحج والبيع . م ١١٦ " لا يجوز أن تتولى المرأة الحكم فلا تكون خليفة ولا واليا ولا عاملا ولا تباشر أى عمل يعتبر من الحكم . م ١١٧ " تعيش المرأة مع النساء والرجال المحارم ولا يجوز الخلوة بغير محرم . م ١٢٠ " وتفرض عليها الطاعة ويفرض على زوجها

نفقتها .]ونلاحظ أن مطبوعا عن الحزب أباح تقبيل الرجل للمرأة بشهوة فى الطريق العام وأباح للمرأة الخروج حتى لو مانع زوجها [وربما كانت هذه الاباحة موجهة لجذب الشباب الاجانب .

أما الموقف الاقتصادى فى دستور الخلافة م ١٢٨ " الملكية الفردية حكم شرعى مقدر بالعين والمنفعة م ١٣٢ تمنع الشركات المساهمة والجمعيات التعاونية وسائر المعاملات المخالفة للشرع . م ١٣٥ " يمنع تأجير الأرض للزراعة مطلقا . م ١٣٩ لا يجوز للدولة أن تحول ملكية فردية إلى ملكية عامة .

وأخيراً م ١٩١ . المنظمات التى تقوم على غير أساس الاسلام أو تطبق أحكاما غير أحكام الاسلام لا يجوز للدولة الاشتراك فيها كهيئة الأمم ومحكمة العدل الدولية وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى وكذلك المنظمات الاقليمية كجامعة الدول العربية لا يجوز شرعاً الانضمام إليها" .

والآن هل أحسستم برائحة داعش والقاعدة فى كل هذه المواد . ألم نقل أن البئر المسمومة للفكر المتأسلم هى المصدر الحقيقى لهؤلاء المتأسلمين جميعا ابتداء من البنا إلى سيد قطب وامتداداً حتى بن لادن والظواهرى والبغدادى وبوكو حرام وشباب الصومال . . وغيرها . كلهم من ذات البئر وكلهم إلى ذات البئر المسموم .

الهوامش

(١) ابن أبى الحديد-شرح نهج البلاغة-جزء٢-ص٩

(٢) أبو جعفر الطوسى -تلخيص الشافى-جزء ١-ص٩

(٣) سليمان كتانى-الإمام الحسين فى حلة البرفير-إيران. ص٧٢

(٤) المرجع نفسه ص٣٨

(٥) الإمام السيوطى-الاتقان فى علوم القرآن-ص٤٨

(٦) أبو الأعلى المودودى- نظرية الإسلام وهديه- ص٧١.

(٧) أبو الحسن الموارردى- الأحكام السلطانية.

(٨) حسن البنا- الرسائل- ص٥٧.

(٩) عمر عبد الرحمن - حتمية المواجهة- ص٦٣.

(١٠) د. عبد العزيز الشناوى- الدولة العثمانية - الجزء الأول- ٣٠.

(١١) Wilfrid Blunt- Secret History of The English Occupation of Egypt - London - 1907- p. 10.

(12) Ibid. p.47.

(١٣)التايمز (اللندنية) ٣٠-٦-١٨٨٢- نقلا عن عبد الله النديم - تاريخ مصر فى هذا العصر- مخطوط- حققه د. محمد أحمد خلف الله.

(١٤) سليم خليل نقاش- مصر للمصريين- الجزء الخامس- ص٢٠١.

(١٥) الشيخ محمد عبده- الأعمال الكاملة- الجزء الثانى- ص ١٣٩.

(١٦) المرجع السابق- ص ١٢٥.

(١٠)
والنقاب .. إسلام أم تأسلم

أخيرا اصدر د. جابر نصار رئيس جامعة القاهرة قرارا بمنع النقاب فى الجامعة، وهذا القرار الشجاع والمستند إلى صحيح الإسلام يستحق كل تأييد واحترام. وليس فى الموقف أى جديد فمصر عبر رموزها الثقافية والدينية وقفت على الدوام ضد النقاب المتأسلم، ونبدأ برائد التجديد والتنوير فى مصر الحديثة الشيخ رفاعة الطهطاوى، ونقرأ فى كتابه "تخليص الابريز فى تلخيص باريز "أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن، بل ينشأ ذلك من التربية الجيدة أو الخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك فى المحبة والالتآم بين الزوجين" (ص٣٠٥).

ونلاحظ هنا أن الأمر فى زمن رفاعة لم يكن يستند إلى أية نزعات متأسلمة ولا إلى حديث عن حلال أو حرام، وإنما كان

يعتبر توجها عند البعض باعتباره رمزا "للعفة" وليس أكثر، ونأتى بعد ذلك إلى الاستاذ الإمام محمد عبده وهو ايضا واحد من رواد الاستنارة والتجديد إذ تقدمه جريدة الأهرام لقرائها ككاتب وفد إلى صفحاتها بعد شهر واحد من بداية صدورها أى فى سبتمبر ١٨٧٩ فتقول عنه "العالم العلامة الأديب الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر والهدف من مقالاته هو بث الأفكار بين الناس لتكون سببا لتنوير البصيرة وتطهير السيرة وتحرك فيهم روح الغيرة" وللاستاذ الامام محمد عبده مفتى الديارالمصرية نظرية متكاملة فى تحرير المرأة والتعامل معها ونقرأ "الأسرة لبنة فى بنيان الأمة التى تتكون من العائلات، فصلاحها صلاح للأمة، والرجل والمرأة متماثلان فى الحقوق والاعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والعقل والشعور، وإعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيدا لغيرهم" (الأعمال الكاملة- الجزء الخامس- ص٢٠٨) وقد افتى الاستاذ الإمام بعديد من الفتاوى تستهدف حماية حقوق المرأة فهو يرفض تعدد الزوجات قائلا "وإذا كان تعدد الزوجات فى صدر الإسلام مقيدا، فإنه يجلب اليوم للأسرة وللأمة فسادا، وإذا ترتب على شئ مفسدة فى زمن لاحق فلاشك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضر" (المرجع السابق- الجزء الأول ص١٧٤) وقياسا على هذه الفتوى فحتى لو إدعى المتأسلمون أن النقاب كان موجودا ومقبولا فى صدر الإسلام، وهو ما سنرى فيما

بعد أنه غير صحيح على الاطلاق، فإن هذه العادة يجب أن يتغير الحكم فيها بتغير الزمان والمكان واحتياجات العمل. ثم نأتى إلى شيخ آخر طبقت شهرته الآفاق بسبب كتابه الشهير الذى مزق دعاوى وأوهام الخلافة وقدم الأدلة الدينية والعقلية على أنها تأسلم وليس إسلام، لنقرأ له فى مجلة السياسة مقالا عن تحرير المرأة، وقد نشره بالإنجليزية فى جريدة إنجليزية ثم أعاد نشره فى السياسة (١٤ اغسطس ١٩٢٥) وهو يقول فى مقال آخر يعقب فيه على كتاب "السفور والحجاب للآنسة نظيرة زين الدين" قائلا "وإنى لأحسب مصر قد إجتازت بحمد الله طور البحث النظرى فى مسألة السفور والحجاب إلى طور العمل والتنفيذ، فلست تجد بين المصريين- إلا المخالفين منهم- من يتساءل عن السفور : هو من الدين أم لا؟ ومن العقل أم لا؟ بل تجدهم وحتى الرجعيين منهم يؤمنون بأن السفور دين وعقل، وضرورة لا مناص عنها لحياة المدنية الحاضرة" ثم هو يوجه تحية حارة إلى مؤلفة الكتاب قائلا" هى شابة فتية من بنات الشرق تنهض بالدعوة إلى ما تعتقده صوابا وأن خالفت فى ذلك رأى الشيوخ الرجعيين والمتقدمين، ذلك أن تراجع البعض عن إعلان آرائهم الحرة وأن خالفت رأى الجموع إنما ينم عن افتقاد للشجاعة. فالذى ينقصنا هو الشجاعة فى الرأى وقول الحق من غير تردد ولا رياء فهنا مبدأ الكمال الإنسانى، وهنا تختلف أقدار الرجال، مصلح أو مفسد، وشجاع أو جبان" (الهلال - أغسطس ١٩٢٨).

ونأتى إلى واحد أكثر رواد التجديد والتنوير استناره الاستاذ أحمد أمين لنقرأ فى "فيض الخاصر" "التعليم حق للمرأة، فما لم ترتق المرأة وما لم تتحرر وما لم تتعلم لم يكن هناك أمل كبير فى جيل صالح جديد" (الجزء الثامن- ص٧٦) ويقول "وبرغم أن المرأة أكثر محافظة على العادات والتقاليد من الرجل إلا أنها أحسن تقديرا للواقع وأقرب آمالا" (الجزء الأول- ص٢٦٢) ثم هو يعلن تأييده "للسفور" لأنه - على الأقل- علامة على زوال الفروق بين الرجل والمرأة" (الجزء التاسع- ص١٩٧) ثم يهاجم الرجعيين من رجال الدين "لأن تمسكهم بالظواهر يفوق تمسكهم بالجوهر ولأنهم كانوا من أهم أسباب تخلف المسلمين عن ركب الحضارة" (حياتى- ١١١) وهو يؤكد "أن التجديد ضرورى بل هو أمر حتمى لفهم الدين والدنيا، وإقامة الملاءمة بينهما، فالمسلمون لم يلتزموا بالدستور القرآنى إلا فى عهد الرسالة وبعدها بقليل ، وأما ماعدا هذه الفترة فقد عاش المسلمون عيشة منحرفة عن الدين، وعادت الجاهلية وقد تسترت برداء الدين" ويقول "توقف تيار التطور إلى أن أصبح اجترارا لما قيل فى الماضى وتوقف تيار التطور إلى أن أصبح اجترارا لما قيل فى سائر الميادين وابتعد عن مواجهة مستجدات الحياة وأصبح الأمر تقليدا فى تقليد التقليد وزيغ عن طريق الحياة الصحيح، وحاجز أمام عوامل تنشيط النهضة" (فيض الخاطر- الجزء الثالث- ص ١٧٥) وكل ذلك يندرج فى رفض موضوع النقاب فهو جزء من ميراث الجاهلية والعودة إليه تقليد وهو زيغ عن طريق الحياة

الصحيح" بل هو يقول صراحة "أن ما يحاول البعض القول أنه نظم إسلامية هو فى الواقع فارسى الأصل أو مستعاد من الجاهلية أو مقتبس من الحضارة والثقافة اليونانية" (ضحى الإسلام- ص٢٩٦) وهكذا كان الرجوع إلى عادة النقاب رجوعا إلى ما كان فى الجاهلية وإلى ما أتى مع الفرس.

ونأتى إلى مفكر معاصر وهو الأستاذ الدكتور أحمد شوقى الفنجرى وهو يقدم بحثا علميا راقيا ومتوازنا حول موضوع النقاب. والكتاب وعنوانه "النقاب" فى التاريخ - فى الدين- فى علم الاجتماع. وقد صدرت طبعته الأولى فى ١٩٨٧ ثم الثانية فى ٢٠٠٩. وعلى ظهر الغلاف يحذرنا المؤلف "فى الدين الإسلامى أمور قطعية مثل العقائد كوجود الله ووحدانيته، ومثل العبادات كالصلاة، وأمور اجتهادية مثل العلاقات الاجتماعية والتى وضع الإسلام لها اطارا عاما لكنه ترك للمجتهدين من علماء المسلمين حرية التفسير والاجتهاد، وذلك حتى يصبح الدين الإسلامى قابلا للتطور مع تطور المجتمع وحاجة الناس"، وقد فسر الدكتور الفنجرى اهتمامه بموضوع النقاب بأنها ظاهرة كانت قد اختفت لأزمان طويلة جدا ثم عادت إلى الظهور فى كلية طب القاهرة عام ١٩٨٥ (ص١٣) (ونلاحظ نحن أنه مع صدور قرار د. جابر نصار منع النقاب فى الجامعة كانت المنتقبات اللائى رفعن دعوى قضائية ضد القرار من هيئة التدريس فى ذات الكلية، بما يوحى أنهن فعلنها منذ عام ١٩٨٥. وتبدأ القضية عام ١٩٨٥ بأن بعض الطالبات لبسن

النقاب والقفازات واستدعاهن العميد ليبلغهن أن لائحة الجامعة تمنع لما فى ذلك من مشكلات أمنية وصعوبة تلقى العلم فى الدروس العملية، وفى يوم الامتحان اصر الممتحنون على عدم مشاركتهن فى الامتحان إلا بعد أن يكشفن وجوههن. ورفضن وتدخلت الشرطة ثم تدخل الطلاب من اعضاء الجماعات المتأسلمة وانفلت الزمام وانقلب الموقف إلى مظاهرات عنف. (ص١٤). ويمضى د.الفنجرى "أن هذا التطرف والغلو فى الدين اخطر على الإسلام من اعدائه، فإنه يصور الإسلام للناس وكأنه دين غير عملى ولا يمكن تطبيقه فى الحياة والواقع، وأنه لم يخلق لعصرنا وزماننا" (ص١٦)

ونمضى لنقرأ "نحن نختلف حول وجه المرأة هل تغطيه أو تكشفه؟ وهل تفتح عينيها فى الطريق أم لا؟ وهل تكشف كفها أم لا، ونختلف حول حق المرأة فى العمل، وفيما نختلف بشدة وبعنف إذا بالشعوب الأخرى تتسابق على استعمار القمر وغزو الكواكب الأخرى (ص٢٠) ثم يسأل "ولكن أى إسلام نريد؟ أنه الإسلام المبنى على الفهم الصحيح للدين، فهم يجمع بين تعاليم الدين ومقتضيات العصر ومبنى على التنور والاعتدال والحكمة، ونرفض بشدة إسلام المعوقين من المتأسلمين والمتجرين والمتخلفين الذين يريدون العودة بالمسلمين القهقرى" (ص٢١) وتحت عنوان "النقاب فى التاريخ" نقرأ "النقاب عادة قديمة جدا تعود إلى ما قبل ظهور كل الديانات فقد عرفه الأشوريون والأراميون والبابليون والفرس والتركمان، ولم يكن النقاب قاصرا على النساء بل الرجال ايضا،

فكان بعض فرسان العرب فى الجاهلية والذين بينهم ثأر قديم إذ حضر سوق عكاظ يخفى وجهه عن اعدائه، ولم تكن نساء تلك العصور يلجأن للنقاب عن عفة بل أنه كان أكثر شيوعا بين البغايا" وفى ذلك يقول الشاعر الجاهلى الحارث بن كعب" ولا طرحت عندى بغى قناعها" وروى البخارى عن رسول الله (صلعم) "غفر الله لامرأة مومسة مرت بكلب يلهث من العطش الذى كاد أن يقتله فنزعت خفها وأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك" وقد ورد ذكر النقاب فى كتابى العهد القديم والجديد فمثلا جاء فى الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين أن تامار" مضت وقعدت فى بيت ابيها ولما طال الزمان خلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلفلفت" وفى الإصحاح الرابع والعشرين أن رفقه عندما رأت اسحق أخذت البرقع وتغطت" (ص٢٧). ويمضى د. الفنجرى قائلا "كان النقاب موجودا قبل الإسلام ولكن الإسلام لم يفرضه. والنساء لم يكن يغطين وجههن فى حضرة الرسول (صلعم) بل كن يجالسنه ويتحدثن إليه وهن سافرات" (ص٢٨) ويقول أن النقاب لم يفرض إلا فى عهد السلطان سليمان العثمانى فى ١٥١٧ ميلادية فقد اصدر فرمانا حاول به أن ينسى العامة كراهيتهم لظلم الولاة العثمانيين ووحشيتهم وجاء فيه "أن كل امرأة تسير كاشفة وجهها بغير نقاب تعاقب بقص شعرها وتركب حمارا بالمقلوب وتعرض فى الأسواق العامة". (ص٣١) ويقول فى نهاية الأمر "الإسلام لم يأمر بالنقاب بل هو مكروه، فلا يوجد فى القرآن ولا فى الاحاديث أمرا

بالنقاب ويفسر البعض الآية" وليضربن بخمرمهن على جيوبهن" بأنها تعنى النقاب. لكن الخمار يغطى الرأس ويتدلى على الكتفين فالأمر هنا ينص على غطاء الجيب أى فتحة الصدر بطرف الخمار وإلا كان الأمر "وليضربن بخمرهن على وجهوههن" (ص٣٦).

ولكن بعد كل ذلك يتحدث البعض عن الحرية الشخصية وهى مكفولة ولكن مع الالتزام بضرورات المهنة فمثلا الطبيب لماذا يلبس بالطو ابيض وليس أسود لأن اللون الابيض يريح المريض. والممرضة المنتقبة فى غرفة الافاقة مثلا قد تفزع المريض الذى يفيق من التخدير إذ يجد أمامه دولابا اسودا فور فتح عينيه وقد يفزع أو حتى يتخيل أنه عذاب القبر. وقد ناقش الاستاذ أحمد بهاء الدين مبدأ الحرية الشخصية الذى قررته محكمة القضاء الإدارى للمنتقبة فتساءل هل هى مطلقة وهل يمكن أن تذهب فتاة إلى الجامعة بالمايوه مثلا، ويختتم الدكتور الفنجرى كتابه القيم مؤكدا أن النقاب ليس من الدين ولا هو يلبس لسبب دينى لكنه توجه سياسى تسير به المنقبة كإعلان متحرك لإشاعة روح التأسلم فى المجتمع وهذا ما نعتقده نحن ايضا.

بدلا من الخاتمة

إذا زرت يا مولاى قبر محمد
وقبلت مثوى الاعظم العطرات
فقل لرسول الله يا خير مرسل
أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها
كأصحاب كهف فى عميق سبات

أحمد شوقى

المحتوى

- الإهـداء 5
- مجرد تبرير 7
١- المسلمون الأوائل كيف فهموا القرآن..... 13
٢- قراءة متعجلة للخلافات..... 17
٣- الخلاف حول الخلافة..... 21
٤- ومزيد من الخلاف حول الخلافة..... 31
٥- الإمام علي..... 37
٦ - الحسين أبو الشهداء..... 49
٧ - رواة الحديث..... 61
٨ - التفسير والتأويل وما بينهما..... 71
٩ - وماذا عن الخلافة؟..... 101
١٠- والنقاب إسلام أم تأسلم 123
- بدلا من الخاتمة 131

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقًا)
ت: 23904096 - 23952496